لا شيء في السماء

روضة السالمي

© حقوق النشر الإلكتروني محفوظة ل
www.nashiri.net
© حقوق الملكية الفكرية محفوظة للكاتب
نشر إلكترونيا في إبريل 2004

المحتويـــات

مقدمة

1. لا شيء في السماء
2. لن أقول صباح الخير
3. قرف
4. رقصة المطر الأخيرة
5. دهشة
6. صوت الفجر
7. صخب
8. عرق
9. سقوط
10. اعتراف
11. الكلب

السيرة الذاتية للكتبة

مقدمـــة

هنالك صمت يضج بالغياب.. وهدوء يرتدي فوضى الزمان.. وفي السماء أشياء كثيرة ترفض كشف أسرارها والبوح بمكنون رحمتها التي قد تتدفق على حين غرة.. والصباح لا يكشف عن خيره إلا لمن لا يتوقع مجيء الغد.. ذلك الذي تبطئ خطاه.. ورغم القرف الذي يصيب الجميع ورغبة المطر في الموت رقصا إلا أن الدهشة تبقى وجها بلا ملامح.. وجها يخبئ صوت الفجر في داخله.. يخنقه وينزع عنه ريش الوجود.. ريشة ريشة.. خفقة خفقة.. هنالك صخب يعتمل في أرجاء الصمت الملتحف بعباءة من سواد الحقيقة.. وهنالك عرق غزير يتصبب من كل مسامات الحياة ورغبة في التحول والسير في خط عمودي طويل..خط طويل طول دائرة الماضي والغد الذي لا موعد له.. غير أن هنالك وجها آخر للوجود.. وجها مشوها بآثار السقوط والانكسار.. ويطل وجه الخيبة من خلال الغياب.. والاعترافات بالهزائم في هذا الزمن المر لا تجدي نفعا لأنها ببساطة تخفق في إعطاء قيمة مضافة للشبه بين الكلب والإنسان..

روضـــــــة السالمـــــي
تونـــــس

لا شيء في السماء

من خلال ستار الشرفة الضيقة ترى السماء كئيبة هذا اليوم. بعض الغيوم الصفراء المكدرة تتسابق في وهن. وتمر زاحفة فوق رؤوس باعة الخضر والسمك والملابس المستعملة.. نسوة ملتحفات يتجمعن حول عربة جزر وملفوف وبقدونس.. يتجادلن بصخب.. ثم يتفرقن ليجتمعن من جديد أمام عربة أخرى.

لا شيء البتة يجعلك تستمر في هذه المتابعة المزمنة والمضنية لأحداث يومية في باب الفلة. لا شيء يدعوك لذلك... لا شيء البتة في سمائك هذا اليوم.. وغدا.. والأمس.. وليس لديك شيء آخر تفعله.. أو لعلك لا تريد التفكير فيها مجددا.. أو لا تستطيع التوقف عن التفكير فيها.. فتتابع بإصرار أحداثا باهتة. أحداثا بلا روح.. مثلك تماما.

يصلك صوت ارتطام قوارير الغاز التي ينزلها العمال.. تختلط الأصوات وتتشابك.. تميز صوت ثلاثة نساء يتنازعن رزمة بصل أحمر.. من بعيد يأتيك صوت يسب الجلالة.. وعورة أم أحدهم.. ومن بين الأصوات يخرج صوت عزيزة تنادي بصوتها المشروخ رجلا لم يدفع لها ثمن كأس حمص مبلل.. صرير باب في مكان ما يفتح ببطء. ثم يوصد.. متسولة عجوز تتمتم أدعية مبهمة.. رغم أن اليوم لك يكن جمعة... ولم يكن ذلك مهما حقا.. وحدها قهقهة علولو المجنون تدور بإصرار في فضاء باب الفلة وتستقر في أذنيك... قهقهة وكلام مبهم.. شيء يشبه صوت حيوان يتخبط في نفق مظلم..

تؤلمك القهقهة المجنونة. تثقب جدار رأسك... وفي الليل حين ينضب السوق من سيل المارين والمشترين والباعة. وتغلق الحوانيت أبوابها. وتتراقص القطط والكلاب السائبة على أكوام القمامة. وحده يبقى علولو مستندا إلى دكان المنوبي المحروق يقهقه في وجه السماء.. في وجه جرحك.. في وجه فكرك الموبوء.. في وجهك الذي طلقته الملامح..

تنظر في صمت داخل نفسك.. فلا تجد شيئا في سمائك.. لا تجد شيئا البتة.. تشيح بنظرك بعيدا عن شرفتك العمياء.. غير أن الصور تلتصق بالذاكرة..

تزحف رائحة الملوخية من الزجاج الموصد.. تأتي قادمة من دار عم الزيتوني. تعرف أنهم لا يطبخون الملوخية بالكرشة إلا في المناسبات السعيدة.. تفكر إن كان هنالك من مناسبة سعيدة في الأفق.. وتتفادى لا شعوريا البحث في داخلك عن معنى السعادة.. تكتفي بملء صدرك بالرائحة.. رائحة السعادة بالكرشة والملوخية..

تفكر أن عم الزيتوني قد يكون تحصل أخيرا على بطاقة معاق.. تحسده في سرك. سيتمتع بالعلاج وركوب الحافلة بالمجان.. والمنحة التي يوزعها العمدة أول كل شهر.. وبالخصوص سيتمتع بالأكل على موائد الإفطار.. وتعرف كم ستتألم مبروكة من ذلك.. وكم ستبكي.. وكم ستدعو الله كي يأخذ لها حقها من الجميع.. مبروكة ذات الستين خريفا.. التي قطعت رجلها في حادث سقوط الوكالة منذ خمس عشر عاما.. ولم تحصل بعد على التعويض.. تعرف أنها ستحسده من كل قلبها. كما تفعل أنت الآن.. غير أنك تحسده لأنه ليس لديك شيء آخر لتفعله..

تتساءل في داخلك.. هل كان عليك أن تولد هنا.. في هذه الجحور الموبوءة.. تشتاق للخروج للشمس. لرؤية البحر الذي سمعت عنه. ذلك البحر الذي بالألوان.. تشتاق لرؤية السماء والنساء.. تلعن الزجاج الذي يمنع دخول صور أكثر إشراقا وهواء نظيفا.. هواء يصل إلى صدرك دون المرور عبر أدران المدينة..

تزحف نحو الباب الموصد دائما.. صوت السرير المتأرجح يصر على ذبحك في اليوم ألف مرة.. وككل مرة تنظر من ثقب المفتاح.. نفس اللعبة المعادة.. صوت التصاق الأجساد وتفرقها.. نفس اللهاث.. لهاثهما ولهاثك.. ونفس الحمى.. هل هي المرة الخامسة منذ الصباح.. تفكر أنها ستتعب.. سيأتي يوم تتحول فيه إلى متسولة.. وستأخذك معها.. حينها يمكنك أن ترى السماء.. وتلمس التراب بأصابعك.. وترى أشياء أخرى غير هذا السوق وهذا الحائط الذي يكاد ينهار..

تتساءل للمرة المليون هل صحيح أنها تفعل ذلك من أجلك.. لا ترى من خلال الثقب تعابير وجهها.. تتمنى لو تسمعها في الليل تبكي.. لو تجيء يوما لتبكي على صدرك.. لكن لا شيء.. لا شيء في داخلك.. لا تسمع سوى همهمات النشوة.. سوى السعال أو الكلمات النابية والضحكات الصفيقة.. ولا تشم سوى رائحة العرق والمني.. ورائحة أوراق النقود.. ولا تتذوق سوى الحساء باللحم والخضر.. اللحم الذي يشتهيه نصف سكان الحي.. ويأتيك بين يديك لحما جاهزا.. لحما رخيصا.. وتأكله وأنت تبكي في داخلك.. لكنك تأكله..

تزحزح نظرك المنكسر عن الثقب.. تزحف في صمت إلى حيث تنام.. إلى حشيتك المهترئة على البلاط بالأبيض والأسود.. إلى الوعاء الذي تقضي فيه حاجتك.. تجر بجهد جسمك المرتخي.. وترتمي متعبا وبلا انتظام على الحشية.. تخفي لهاثك في صدرك المتعب.. ترفع بصرك إلى الجداران التي تحيطك.. تتلهى بعد الأماكن التي نخرتها الرطوبة.. غرفتك رمادية.. تشبه سماء هذا اليوم الكئيب.. ككل أيامك.. تلك التي مضت.. وتلك التي ستأتي..

لم تمطر بعد.. وماذا لو أمطرت.. لا شيء يتغير.. كل شيء جامد.. كسيح ومهمل.. مثلك.. مثلك تماما.. تحس السماء ثقيلة. توشك على الانفجار.. كبغي تستعد للولادة.. سماء من صديد أو قصدير.. تنظر إلى زجاج الشرفة. من خلال الستار الشفاف المهترئ ترى ضجيج باب الفلة..

ضجيجه اليومي المعاد.. وتسمع احتكاك الثياب المستعملة والخضر المتعفنة في القفاف المهترئة.. وتلمس نظرة هامسة تشتهي تفاحة لا تعرف شكلها أو مذاقها..

من خلال تعرجات زهرة مرسومة على الستار ترى يد امرأة تسرق بعض اللفت من عربة مارة.. لا ينتبه لذلك أحد سواك.. وتعتقد في داخلك أن الله أيضا لا ينتبه.. بعض الأطفال يقرعون سطلا كسر قعره.. آخرون يدخنون عقب سيجارة لم تنطفئ بعد.. والنهج ضيق.. ضيق كأنفاسك.. كصدرك.. ككل أيامك.. ترتطم نظرتك بالجدار المقابل.. فتعود بإصرار ترصد المارة..

ترى وسيلة.. وسيلة قحبة الحي الثانية... تحمل في يدها صرة ثياب.. تعرف أنها ستذهب اليوم إلى الحمام.. وستأتي بعد ذلك إلى هنا.. وستشم أنت رائحة التبغ والقهوة والرجال.. وتعرف أيضا أنك ستمارس استمنائك الذهني خلف ثقب المفتاح.. وستتمنى لو تراها تعانق أمك.. وستتمنى لو تعانق أنت جسد أمك. وتستبد الرغبة بجسدك المصلوب على ثقب الباب.. وستتمنى لو تستطيع كسر الباب أو إصدار أي صوت.. وأن يتوقف الكون كله عن الدوران.. وستطلب الموت الذي لا يأتي.. وستتمنى لو تموت أمك.. لو ينتهي كل شيء دفعة واحدة.. وستخجل من أمنياتك.. لكنك ستستمر في تخيل عناقك مع أمك.. أو مع وسيلة.. أو معهما.. ولن تخجل من السماء التي في داخلك..

قهقهة علولو تخرجك من ضيقك.. من ثقبك الضيق.. إلى غرفتك الأكثر ضيقا.. غرفتك الضيقة بك.. وبما في داخلك.. وبصمتك.. يمر علولو بشكله الفوضوي.. يدخل ظله من ثقوب الستار الذي يغطي زجاج شرفتك.. ويمضي بعيدا مقهقها في وجه السماء التي لن تمطر اليوم أيضا.. تزحف أصابعك على ما أمكن من جسدك.. تعرف أنه عليك أن تنسى.. أن تنسى جسدك إلى حين..

من ثقوب الستار ترى محرزية بائعة الملسوقة ذات الخمسين ربيعا تغازل علنا العروسي الفحام.. وتبتسم له بأسنانها النخرة.. التي أنهكها التبغ الرخيص.. تعرف كل قصص الحومة. من دون أن تخرج للشارع.. فقط يكفي أن تسمع ما يدور في حجرة أمك.. الحومة طنجرة وأمك ملعقتها.. كما يحلو لها أن تردد دائما.. وأنت ما التصق بالقاع.. كما تقول أنت دائما في داخلك.. أنت ما يعلق بقعر الأشياء.. أنت ما لا يمكن استعماله.. أبدا.. لا شيء في سمائك هذا اليوم.. لا جديد في الأفق.. أفقك.. ولا أفق لك.. لا اليوم.. ولا غدا.. ولا الأمس.

تسمع بابك الموصد يفتح.. تدخل أمك.. تفوح منها رائحة لم تألفها روحك بعد.. أو لا تحب أن تألفها.. تحمل في يدها طبق طعامك.. تضعه قربك أرضا.. تسوي جسمك المستلقي بلا ترتيب على الحشية المهترئة.. تضع وسادة خلف ظهرك.. تسندك إلى صدرها.. فتضغط أنت على الصدر أكثر.. وتتمنى للحظة خاطفة لو تبقى هكذا إلى الأبد.. لو تبقى ملتصقا بصدر أمك.. لولا رائحتها التي تتغلغل في أحشائك.. لولا هذه الرائحة التي ترفضها كل حواسك..

تبعدك عنها في رفق.. وكأنها تفهمك.. تهمس لك أشياء لا تفهمها.. أو لا تريد أن تفهمها.. لأنك فقط تحب أن تسمع الصوت الخارج من صدرها الذي أنهكته السجائر.. أن ترى حركة شفتيها.. تحدثك بأشياء تحفظها عن ظهر قلب.. تمسح على وجهك.. تدخل أصابعها في شعرك المجعد.. تعدك أن تحميك في المساء.. أن تدلكك جيدا بالماء الساخن والصابون والليفة..

تخرج خرقة من جيب ثوبها.. تنظف أنفك من بقايا مخاط.. تمسح خيط اللعاب الذي يسيل على ذقنك.. تنظر في أذنيك.. وتسندك جيدا إلى الوسادة.. تمسك بيدها وعاء الحساء بالخضر واللحم الذي أدمنته منذ صغرك.. لأنك ستبقى دائما صغيرا.. ولأنك لا تستطيع أكل شيء غيره..

تناولك الحساء الذي من لحمها.. وتحمل بيدها الملعقة إلى فمك.. تعرف أنك تستطيع بقليل من الجهد أن تأكل بمفردك.. لكنها تحب أن تفعل ذلك.. تحب أن تبقيك دائما طفلها المدلل.. طفلها الذي إن تركته لنفسه سيموت لا محالة.. وتستطيع أنت أن تأكل بمفردك.. غير أنك تحب أن تتلهى بلمس وجهها المتعب وهي تطعمك.. تتلمسه وكأنك تراه للمرة الأولى.. أو كأعمى يحب أن يطبع الشكل في ذاكرته.. تتلمسه وكأنك تبحث عن بقايا الرجال الذين مروا من هناك.. الذين امتلأت بعريهم عينيها.. وتستسلم لكل حنانها.. عائدا إلى الرحم الأول.. الحضن الأمين الدافئ..

يقطع عليك طعامك صوت القهقهة.. يأتيك مدويا.. غير أنك لا تحب أن تخرج من هذا الحضن.. ترفض حواسك الاهتمام بشيء آخر سوى هذا الإحساس بالامتلاء.. للمرة الألف منذ الصباح يطلق علولو قهقهته.. في سيره المكوكي من أول النهج إلى آخره.. وللمرة الألف تتساءل إن كانت لا تبكي وحدها في الليل كما تفعل أنت دائما.. رغم أنه لا شيء في سمائك.. ولا مطر في الأفق.. وتتلهى بمضغ ألمك مع حساء الخضر المسلوقة.. بينما تنظف أمك لعابك السائل على ذقنك.. ذقنك التي لن تنبت الشعر أبدا..

لن أقول صباح الخير

أجلس إلى النافذة.. أرتشف فنجان شاي أخضر بالنعناع.. أعرف أن ذلك لا يتناسب مع هذه الليلة الطويلة.. غير أني لم أجد غيره رفيقا لسهري..

النجوم عيون شياطين تحرس نوم المدينة المتوج بالأرق... حين يجفاني النوم أتسلل إلى النافذة الوحيدة المطلة على الزقاق.. أسهر مع الليل الذي يمضي بطيئا وبعيدا كقطار نسي محطته الأخيرة ومضى..

لدي كل الوقت للتفكير.. فنجان الشاي الأخضر الذي أعددته على عجل لم يكن سيء المذاق.. فقط ينقصه السكر.. فقد نفذ.. مثل عمري.. وأماني.. وأحلامي.. ومرتب الشهر

أسهر الليلة مع أفكاري.. من نافذة تطل على زقاق تضيئه بعض النجوم الحزينة.. تسلل إلى مسمعي صوت ديك بعيد.. وأنشد صرصار بليد أغنيته المعادة.. ماء قط يبحث باصرار عن خليلة مجهولة... ماء طويلا ثم مضى...

لدي كل الوقت لأحس بوحدتي فتتجلى لي ذاتي كائنا مكتملا يتحدى صمتي بنزق.. تقسو علي حينا وتصالحني أحيانا أخرى.. تماما مثل هذه الحياة... أحب هذه الرفقة الجميلة مع ذاتي.. وأخشاها في نفس الوقت... في هذه الليلة التي تحاول فيها المدينة النوم بصمت... أرتشف مع نفسي فنجان شاي بدأ يبرد.. أحاول أن أصالح نفسي مع نفسي..

في الشارع حين أذهب صباحا إلى العمل يعترضني متسول أعرج ذو تقاسيم باهتة... يدعو لي بالصلاح والفلاح فأضع في يده مائة مليم كاملة وأمضي... رغم قناعتي بأن دعائه المأجور لن يصل إلى السماء... تطل بعض الرؤوس السمجة من المقهى... ترتشف أولى فناجين القهوة المبللة بالندى... عامل البلدية يدفع الأوساخ بعيدا بتراخ... يحلم بيوم آخر يجلس فيه على صهوة مكان لا وسخ فيه ولا مكنسة...

في الصباح أكون متحمسا لقول صباح الخير قبل أن يفصح الصباح عن خيره المشكوك فيه... ألقي التحية على الحمال النائم أمام باب السوق المركزية منتظرا فتحه... على عاملات التنظيف يتبادلن أخبار مسلسل الحياة اليومي... على كلب بثلاث قوائم... على عمود الكهرباء... على متسولة نشطة تحاول أن تستوقفني بعينيها الذابلتين... ألقي التحية على صنم ابن خلدون المتلفع بعباءته الأبدية.. وعلى ملائكة المسيح وعلى كل الكائنات.. وأمضي خفيفا إلى عملي...

أفتح أبواب الإدارة... أفرغ بتفان منفضة سجائر المدير... أمسح المكتب بعناية... أمسح الكرسي الأسود الفخم... وأغلق الباب بحرص حين أخرج... أعد الشاي والقهوة للجميع... ثم أجلس عند

المدخل أحي كل الداخلين... وأبتسم للمدير... في الصباح أتحول إلى كلب صغير وأليف... يتقن تحريك ذنبه ومد لسانه.. وبالخصوص التقاط الفتات..

أنهي عملي وأعود مسرعا للبيت... نظام الحصة الواحدة في شهر أوت... وشمس الساعة الثانية تلهب شتات المشاعر... دخان السيارات المسرعة يحيط بي من كل جانب... يكاد يخنقني.. باعة الكاكي يحتمون بظل الأشجار الداكنة والمتباعدة.. سواح يشربون الماء من قارورة بلاستيكية ويرمونها في الشارع.. عيونهم الملونة زائغة وجلدتهم الرقيقة احمرت من لهب السماء...

عادة لا أحب التهور... لكنني وأنا الجالس الآن إلى النافذة أرتشف فنجاني الليلي أفكر أن ما فعلته لم يكن تهورا... إنما كان محاولة انتحار... لا أدري مالذي دفعني لإيقاف سيارة أجرة في ذلك اليوم القائظ...

كنت أمشي على الجادة منهكا ومفرغا تماما... ولم أنتبه ليدي كيف امتدت ولا لنفسي إلا بعد أن تورطت في الجلوس على المقعد الخلفي لسيارة أجرة معفرة... انطلقت بي سريعا ولم تترك لي فرصة للتراجع... خجلت من الاعتذار للسائق... أدخلت يدي إلى جيبي خلسة... تلمست الورقة النقدية المهترئة التي أدخرها للشدائد... وندمت كثيرا... لم أستطع الاسترخاء في مقعدي الملتهب... العداد يلتهم الأرقام الهاربة... وأنا أغوص في عرقي...

ست مائة وثلاثون مليما... صوت داخلي يحذرني من اقترابي من الدينار... عينا السائق ترقباني بارتياب في المرآة العاكسة... وأنا مشدود كطود لا يمكنه الارتخاء...

من النافذة أرى البنايات القديمة الشاهقة تتراجع في وهن... صبي يدفع عربة خبز تتضجه شمس أوت الحارقة... شيخ يقود لاهثا دراجة قديمة... الكثير من الزحام... في الطريق وفي صدري...

دينار وثلاث مائة مليم... غصة تعلو وتهبط في الصدر... كم كان الأولاد سيفرحون لو اشتريت لهم قارورة مياه غازية في هذا اليوم القائظ... نظرات السائق المتشككة تجعلني أتماسك في مقعدي... علي أن أخوض التجربة لنهايتها... معدتي تشكو الفراغ...

أرى من خلال زجاج النافذة رجلا يحمل بطيخة حمراء كبيرة في عناء واضح... أشتهي لو كنت مكانه... لو تهورت وغامرت بورقة الخمس دنانير التي ترقد في جيبي منذ ستة أشهر واشتريت بطيخة لفرحت بشرى كثيرا ورقصت حولها كذبابة صغيرة ولوضعها يوسف في قصعة ماء كي تبرد قليلا... ولتخاصم عدنان وسفيان على من يقوم بفتحها...

دينار وتسعمائة وسبعين مليما... والسيارة مازالت واقفة في الضوء الأحمر... خيوط العرق على جبيني كسياط تلهب كل مشاعري... لا أستطيع أن أنزل الآن وقد أوشكت على الوصول... ماذا سيقوله الجيران عني عندما يروننني أنزل من سيارة الأجرة... سيتوقعون أمرا ما.. ترقية مستحيلة

أو زيادة في الراتب.... تنطلق السيارات مع الضوء الأخضر... تطالعني عين العداد الصماء الخرساء... ديناران ومائة وأربعين مليما...

يقف السائق أخيرا أول الزقاق... أغادر صامتا السيارة التي امتلأت عرقا وندما... أمد يدي بالورقة المدعوكة... يفردها السائق بعناية... يتثبت منها ثم يعيد إلى الباقي... ديناران وثمانمائة وخمسين مليما... أسامحه مرغما في العشر مليمات..

الزقاق صامت.. القطط تنام بحذر قرب الجدار.. أدير المفتاح في القفل الصدئ وأدخل البيت.. يرافق دخولي المؤلم دعاء أمي.. منذ أن فقدت بصرها أصبحت تتعرف علي من خطواتي.. من صوت تنفسي... ويأكل الندم قلبي... لو اشتريت بعض الغلال لكانت ستفرح كثيرا... منذ متى لم يدخل كيس غلال بيتنا... لا يمكنني الذهاب إليها الآن ستحس بضيقي وستتألم لألمي... كنت أنانيا... أعرف ذلك.. الندم يأكل قلبي الآن.. كما يقضم الجرذ قطعة جبن متعفنة.. منظرها وسط الغرفة الضيقة المعتمة متكوما على الحشية المهترئة مع أبنائي يجعلني أحس أن جريمتي في حقهم لا تغتفر...

تنتظرني زوجتي في المطبخ.. غير أنني أفضل ارجاء اللقاء.. أدخل إلى الحمام أولا.. أتخلص مما أثقل مثانتي وضميري.. ثم اتجه إلى المطبخ.. تعترضني رائحة المقلي بحدتها... تنزلق عيناها رغما عنها إلى يدي الفارغتين... غصة في الحلق... حلقها وحلقي... نداريها بابتسامة واهنة... تقول بأن يوسف سقط من الدرج وانفتح جبينه... وأنها اضطرت لاقتراض ثمن التسجيل في المستوصف من جارتنا منوبية... أحاول أن أداري دمعة احتبست في القلب... وأخرج من المطبخ صامتا... لا حول لي ولا قوة...

دخلت حجرة نومنا ذات السقف الواطئ... لم آكل شيئا.. لا أقدر على تلذذ أي طعام.. أحاول النوم.. الحجرة كابوس صيفي لا مفر منه.. أتململ صامتا على بساط فرش على الأرض تلمسا للبرودة... ينسحب التعب عميقا في داخلي.. دوار عنيف يلف رأسي.. والندم يقضم أعصابي..

لم يحفل النوم بي هذه الليلة.. تغوص المدينة في كآبتها المعتادة... علي أن أستعير بعض المال لأنهي رسم دائرة الشهر الذي لا ينتهي... لسع البعوض لم يعد يؤثر في... نفذت كأس الشاي...

الزقاق صامت إلا من صوت بعض الصراصير... لكنني سأتوقف عن التفكير... يكفي أن أنظر في الفراغ كي أرى من دون مشقة قطار حياتي العادية وقد أضاع محطته الأخيرة... لن أفكر في أي شيء مطلقا... وغدا لن أقول صباح الخير لأحد...

قرف

كان يجلس على عتبة باب المسجد التي هرمت وتآكلت أطرافها مئذنته.. يمدّ رجله العرجاء أمامه كسيف ثلمت ذؤابته.. يداعب خشب العكّاز الذي اسود لونه بيده اليمنى.. بينما ترقد يده الأخرى ذات الأصابع المتشنجة على حجره.. ويظلّ ينظر إلى مناطق آهلة بعيدة ذات اتجاهات ممكنة..

لا أحد يعرف من أين جاء ولا إلى أين يأوي حين تبدأ خيوط النور العنكبوتية الشفافة في التلاشي.. حاولت مرات تتبّعه خلسة.. لكنني لم أكن لأجرأ على أكثر من الرغبة... كنت أخشى أن تلتقي عيناه بنظراتي المتسربة عبر النافذة فيترصّدني.. كنت أخشاه وأتحرّق فضولا.. وحين أمرّ بجانبه أشتهي أن أسأله.. لكنّ نظراته كانت دائما تخيفني ..

كان أزرق الملامح. غريب التقاسيم. وفي عينيه يتوهّج مكر غريب.. يرتدي شتـــــــــاء وصيفا كدرونا رماديا مهترءا وحذاء عسكريا باليا...

في طريقي إلى المعهد كنت أراه يبحلق في المارّين بإصرار مقيت... فأستعيذ باللّه منه و أقرأ المعوّذتين وأسرع الخطى.

صباحا يخرج الناس من بيوتهم كالنمل.. يعجبني التشبيه.. فأتخيّلهم نملا بستـــة أرجل و قرنين.. يركضون من مكان لآخر.. يتزاحمون في حانوت الهادي الجربي.. يشترون الخبز والحليب.. وأشياء أخرى.. يتزاحمون في الشوارع وفي المقاهي وفي المراحيض العمومية وفي المحطات الرديئة وفي الحافلات التي لا تحفل بأحد..

الحافلة رقم ثمانية وعشرين تزعجني. تغصّ بجحافل النمل.. من خلال الزجاج الذي تراكم عليه الغبار وبخار الأنفاس الخانقة لا أستطيع أن أرى سوى أشباح منازل هزيلة وأشجار شاحبة وبغيضة...

تقف قربي نملة بيضاء ترتدي فستانا ضيقا أحمر وتضع أحمر شفاه أحمر وطلاء أظافر أحمر وشعرا مستعارا أحمرا وحذاء أخضر... كرهت اللون رغم براءته... كرهت الرجل النملة الذي لم يخجل حين أدرك أنني أترصّد حوافره التي تتلمس ردفها بلذّة باردة مقرفة.

كنت في الحافلة رقم ثمانية وعشرين... كنت في صندوق نمل محارب.. يحارب طاحونة الزمن الهارب... نظرت إلى ساعة يدي.. كانت السابعة والنصف صباحا.. بقيت أمامي ساعة على الأقلّ قبل ابتداء الدرس..

تمشيت في الشارع الغارق في صباح خريفي بارد وكئيب... رأيت رجلا يعرج فتذكرت أعرج الحيّ.. سرت على الجادّة.. لم يكن السير سهلا لأنّه كان عليّ أن أقفز من حين لآخر تماما كالضفدع كي أتفادى الوقوع في الحفر المليئة ماء أسودا والتي تركها عمّال البلديّة المواظبون جدّا تخليدا لذكرى مرورهم..

قررت أن عليّ أن أشغل ذهني الخامل بالتفكير.. فاخترت اسما للأعرج.. كان اسما قبيحا.. يناسبه.. وقررت في سري أن أدعوه الخضري الميزوري..

لم أنتبه إلى حجر ناتئ فتعثرت وتمزّق الحذاء... لعنت الصباح المقرف والخضري الميزوري القميء... وانحنيت أتفقد الحذاء... لامس شعري الطويل جدّا والجميل جدّا والمزعج إلى حدّ الغثيان بركة صغيرة من المياه الآسنة...

قال أحدهم كلاما نابيا وهو يتعمد أن يتعثّر بي فتلامس يده عجيزتي الهزيلة.. التفت لأسبّه.. لكنه كان قد ابتعد وبردت رغبتي في الشجار.. نهضت.. نفضت التراب عن يدي والماء عن شعري.. واجتزت الطريق..

عادة لا أحبّ أن أرى أحدا في الصباح. حين أخرج من البيت أظلّ أدعو الإله كي لا ألتقي صديقا أو صديقة... في الصباح لا أحبّ أن أتكلّم. أكتفي بالنظر. أنظر إلى كلّ ما يدور حولي بصمت بارد .

كان الصباح باردا و كئيبا. ينذر بيوم رمادي له لون ورائحة و مذاق متعفّن. حذائي يسرّب الرطوبة والبرودة و الحصى، كلّ الظروف تآمرت لجعلي أشعر بالكآبة. أحسّ أنّ شيئا باردا ولزجا ومقرفا سيحصل...

لماذا ينظرون إليّ بكلّ هذا الإصرار؟ هل أنا قبيحة جدّا؟ هل بقي بعض من المخاط على أرنبة أنفي الكبير؟ هل يوحي شحوب وجهي وهزالي عن إصابتي بالسيدا؟ هل أنا مختلفة عن كل البشر؟ ...

مددت يدي إلى حقيبتي أبحث عن نصف المرآة. عينان غائمتان تحيطهما هالة زرقاء. عينان مقرفتان بلون أخضر غبيّ. أكره هذا اللون أتافه. نفس اللون المعاد لأوراق أشجار تافهة تنام بميوعة على الجادّة المبللة بمطر حزين و بول كلب أجرب.

وصلت إلى آخر الشارع العريض. تنتظرني نصف ساعة أخرى من التسكّع. سأحاول أن أدخل الصفّ بعد الجميع. لو وصلت باكرا فسينظرون إليّ. تلتقي عيوننا في لمحة خاطفة فيبصرون نظرتي الـــ... ويهزون رؤوسهم الثقيلة في تحية الصباح. حينها عليّ أن أفتح فمي. أدخل الهواء عميقا في رئتيّ. ألفظه بطيئا مع حروف تتلاصق في قرف.. وعندها سيعرفون.

هذه الأيام لا رغبة لي في الحديث. الكلام يزعجني. مجرّد التفكير في عملية النطق يصيبني بالغثيان. ربط المعاني و الحروف يسبب لي ألما غريبا. نزيفا في الأفكـــار و الذكريات التعيسة.. لا أحبّ أن ينظر إليّ أحد... أعتقد أنني سأعود للبيت.

أمي في المطبخ تريدني أن أساعدها. تصلني تذمّراتها ممزوجـــــة برائحة البصل وموادّ التنظيف أقترب منها. أحاول ألا أقترب كثيرا.. أشتهي أن أقبلها. أخشى أن تطلب مني تقطيع البصل أو غسل الأواني.. أخشى أن تسألني عن سبب عودتي المبكرة. حينها سأضطرّ إلى الكذب. لا يزعجني أن أكذب. ما يزعجني حقّا هو أنني سأضطرّ إلى فتح فمي... تقول أمي إن الأعرج يضايقها بتلصّصه المفضوح. أجيبها بأنّه الخضري الميزوري فلا تدرك العلاقة .

سريري كما تركته في الصباح و كما كان أمس و أوّل أمس و منذ شهر ربما... منذ متى لم أغيّر لحاف السرير.. نزعت الحذاء الممزّق فبرزت الجوارب الرّطبة المهترئة. نزعتها. نظرت إلـــــى أصابـــــع أقدامي القذرة. تكاسلت عن غسلها وأدخلتها بنزق تحت الشراشف. لم أنم.. ضجيج الشارع يكاد يخرجني عن الصواب. أتساءل عن الفرق بين النوم في غرفة و النوم في وسط الشارع .

أرضية الغرفة اكتسحتها أوراق أختي.. أوراق كثيرة.. أغلبها أخذته خلسة من عندي.. عليها خربشات مهووسة مزعجة.. أرقام غبيّة لا نهائية.. كلمات أغنية موعود لعبد الحليم حافظ. و أشياء أخرى... أحمل بصري في قرف إلى السقف.. عنكبوت صبور ينسج بيته ما بين خيط الكهرباء و الزاوية.. أتململ في الفراش أمسك دفتري.. أحاول أن أكتب شيئا.. لا يسطّر القلم غير سطر محشرج طويل. أغلق الدفتر أعيده إلى الحقيبة. أمسك نصف المرآة لأنظر في وجهي.

أراني أخرج من الغرفة. أتلصص من النافذة. أبصر الخضري الميزوري لا يتعب من التجسس العلني.. تمرّ نسوة متلحفات بالسفساري يتبعهنّ بعض الصبية الوسخين. يتعثّر طفل بدين.. يقع.. ينهض باكيا و يلحق البقية.. تلاحق القطيع نظرة السيد الخضري الميزوري الثقيلة و الباردة.

أرتدي ثيابي على عجل.. أقبّل أمي و أخرج.. إلى أين يمكنني الذهاب في هذا اليوم البغيض. أريـــــــد أن أرى شيئا مغايرا.. ليس لي أصدقاء.. فقدت البعض وانسحب البعض الآخر.. ولا أريد رؤية أحد.

قادتني خطواتي العجلى إلى المدينة العتيقة.. قطط مقرفة تحتفل حول كومة زبالة.. يشاركها مرحها البغيض كلب أعور والكثير من الذباب.. أستغرب هذه الألفة الغريبة.. سائح يرتدي تبّانا فضفاضا و حذاء رياضيا.. كان قليل شعر الرأس.. تلتمع جلدته المصهودة بالشمس في الزقاق المعتم... وكان يقبّل سائحة سمينة ترتدي شبه ملابس.

مرّ بجانبي عجوز.. وجهه حفنة تجاعيد عجنت بشعيرات بيضاء كالإبر.. وفي عينيه قذى.. يرتدي جبّة سمراء و بلغة صفراء و يحمل في يده المعروقة جريدة مطوية.. قال لي وهو يجهد في بسط تعاريج الزمن على وجهه: "آه يا كبدي لو كان نرجع صغير".. بصقت عليه في سرّي.. أحاول أحيانا أن أنسى أنني أنثى. إلا أن هنالك دائما من يجد متعة دائمة في تذكيري بذلك .

حين مررت قرب المقهى بعث لي رجل يعتمر شاشية تآكلت أطرافها وامحى لونها قبلة هوائية تلقيتها بقرف.. إلى جواره كان يجلس رجل خمسينيّ ذو كرش منبعجة ترقد قرب فنجان قهوة فارغ على الطاولة.. وكانت أسنانه النّخرة تترك رذاذا من البصاق الخاثر يسيل في خيط متقطّع على صدره و ينحدر على قميصه الأزرق ليستقرّ فوق الكرش العظيمة في حين تغمز لي عينه اليمنى بإصرار فج.

أحبّ هذه الأنهج المبهمة التضاريس.. تضعني دائما في الاختبار.. يكفي أن أغيّر الاتجاه قليلا حتى أكشف عوالم جديدة يفصلها عن بعضها زقاق أو نهج مظلم.. وكأنني السندباد يبحر في أنهج المدينة العتيقة.

فتحت خياشيمي أستنشق عبق التاريخ فأدمعت عينيّ راحة بول قديمة.. طنّت ذبابة هرمة قرب أذني. لم أفهم ما قالته العجوز.. كانت تتلفّع بسفساري رمادي.. يتدلّى من يدها سوار فضّة مسودّة.. يدها الممدودة نحوي سوداء ناحلة.. أظافرها سوداء ووجهها أسود. كانت تمدّ لي يدها.. كانت تتوسّل أو ذلك ما اعتقدته.

كان وجهها الخنفوسيّ صارما وهي تمسكني بيديها كالأحمق.. عليّ أن أقول كالحمقاء إذ لا بأس من التذكير بأنني أنثى.. فلو كنت شيئا آخر رجلا مثلا لما استطاعت المرأة الخنفوس اختطافي.. كلّ ما أذكره عن الطريق كان قطّا هزيلا ينتظر الموت بقرف عند جدار تاجر و قد أغمض عينيه إعياء..

لم يخطر ببالي أنّ كونا آخر ينتظرني خلف باب جانبي في زقاق مظلم.. انتهيت بفضل دليلتي إلى فناء ضيّق تنعكس فيه بذبول بقايا شمس خريفية أصابها الرّمد. في الزاوية اليمنى قرب المدخل تجلس امرأة بلا عمر محدد تدخّن سيجارة تحتضر..

ماء خلفي قطّ بليد بصوته الممطوط.. دفعتني آسرتي إلى غرفة جانبيّة وخرجت. زكمتني رائحة تشبه الموت.. كانت الغرفة باردة و معتمة.. صدى الصمت يقرع الجدران المهترئـــــة.. صمت مضطرب يوحي ببدء حفلة غير مألوفة. وشيئا فشيئا خفّت العتمة و بدأ النور يوضّح الموجودات.

كنت وسط بلاط مهيب.. سجاد قيروانيّ مزركش ينام في دعة على طـــول المكان و عرضه.. أعمدة من الرخام و المرمر السود تحيط المكان.. ستائر حرير و دمقس.. طنافس.. تحف.. صورة

مهيبة للقديسة شاكيرا وأخرى جاكسون.. مقاعد مريحة.. قفص فيه طاووس من ذهب و فضّة وزمرّد و عاج و فيروز.. مراوح ريش يمسكها صبيان بحلل سندسية واستبرق.. نساء حسان و غلمان.. و ووجوه تبدو عليها النعمة..

كنت وسط المجلس المهيب و لم ينتبه أحد لوجودي فتحركت بخفة وحذر حتّى لا يلحظوا وجودي و اتجهت إلى ركن قصيّ حيث أرى دون أن يراني أحد.. جلست على وسادة من مخمل أزرق.. لم ينتبه لوجودي أحد.. يبدو أنني أصبحت بعد الاختطاف كائنا لا مرئيا أو مخلوقا مجهريّا..

يتوسط المجلس شاب عشرينيّ يترقرق النور عليه وقد ارتدى جبّة بيضاء لا يشوبها خيط أسود. و إلى يمينه جلس رجل مهيب الطلعة تزيّن وجهه لحية بيضاء و لا يشينه شيء ولا حتّى رجله العرجاء. وفي المجلس أمراء. ورجال دولـــة وسفراء و كتبة. و أصحاب دواوين. وجند. ورجال شرطة. وسفـــــراء وعلماء وشعــراء وقضاة وتجّار وأصحاب حاجات ورحّالـــــــــة وأطبّـــــاء ووجهاء وأثرياء ولصوص ومبشــرون ومنـــــــذرون وفقراء ومتسوّلـــــــــون وقتلة وفجّار وقوّاد ومنظّرون ونقّاد ومتكلّمون باسمهم ومتكلّمون بإسم غيرهم ومتكلمون بإسم الأحزاب ومتكلمون بلا تسمية ووصوليون وخبثاء ومجانين وعقلاء و غيرهم و أنا طبعا..

و كان يقوم على خدمة الجميع فتيات أنيقات جميلات يفحن عطرا وينضجن سحرا يرتدين ما يستر بمقدار ويكشف بمقادير .

وقف الرجل الأعرج ذو الطّلعة المهيبة وأمر الجميع بالسكوت والانتباه وخاطبهم قائلا: "بإسم الملك العزيز علينا أدامه الله لنا وللوطن أفتتح أنا الوزير ابن الوزير المكنّى بالخاضريّ بن مازر بن كلامه هذا الحفل البهيج.." و ما إن أتمّ الوزير كلامه حتّى هجم الحاضرون على الجواري فأوقفوهنّ في صفّ طويل وأنتقى كلّ ما طاب له من الإناث.. و بدأ الرقص يشتدّ مع ضربات الطبول التي يقرعها الغلمان. و أخذ الجميع في العزف و الرقص و الغناء.

بدأ الملك يعزف على دفّ صغير.. ينقر نقرات سريعة متحفزة تتلوها أخرى أشدّ سرعة و أقوى وقعا حتى كأنّ الأعمدة بدأت ترتجّ. ثمّ بدأت الألحان تنبعث من كلّ ركن فأخرج الخاضريّ بن مازر بن كلامه ساكسفونا و صاحب الشرطة مزمارا والطبيب هارمونيكا والقاضي عودا والشاعر طبلا والمتشاعر إناء طبخ اتخذه طبلا والرحالة عودا وبقية الحضور يصفقون ويصفّرون والكلّ يغني والجواري بعد أن نزعن كلّ رداء يرقصن رقصة البطن و الأفخاذ.. وغرق المكان بالعرق..

و كنت في ركني القصيّ أعاني صداعا مؤلما يشقّ رأسي إلى نصفين.. أغمضت عينيّ برهة ثمّ فتحتهما فألفيتني وحدي و قد غاب الجميع وتحولت الجدران إلى مرايا كبيرة وأخرى أصغر منها بكلّ الأشكال فمنها المستطيل والمربّع والمعيّن وشبه المنحرف والسداسي الأضلاع والثماني وغيرها من الأشكال المضلّعة. لكنني لم أستطع أن أرى نفسي في المرايا.. يطالعني في كلّ مرّة

وجه غريب ينظر إليّ تكاد عيناه تشتمني.. تبصق عليّ.. تنتف شعري وتقتلع عيناي. لماذا كلّ هذا الحقد في العيون.. لست مسئولة عن حبسها في مرايا باردة ..

خيّم صمت مقيت على المكان. أطبقت جفوني بشدّة لكن نظرات المرايا الباردة تسرّبت إليّ تحدّق بي من خلال الظلام تسخر من تفاهتي وتقزّمني.. نظرات نساء كريهة. عيون بكلّ الألوان تبدو أخّاذة أفكّر أنّها ربّمـــا تكـــــون عدسات لاصقة ورموش مستعارة وكحل و ظلال. عيون باردة خاوية فجّة بلا ذكاء بلا معنى ولا تاريخ.

أفتح عينيّ من جديد فلا تقابلني سوى عينين بلون شجر الطريق وقد سقطت أوراقه على البلاط المبلل برذاذ الخريف تنظر إليّ من خلال نصف مرآة تآكلت فضّتها و وشّتها العتمة المطلّة من خلال الثقوب الدقيقة.

نهضت من السرير و توجهت إلى النافذة.. فتحتها فدخلت رائحة المطر اللذيذة تغسل شعوري المنهك وتجدد إحساسي. كان عم الخضري الميزوري قاعدا على عتبة الجامع يمدّ رجله العرجاء أمامه ويراقب بعينيه الشبيهتين بثقب آسن امرأة ملتحفة بسفساري ولا يظهر منها سوى عين واحدة. كان يراقبها وقد انفرجت شفتاه الزرقاوان عن ابتسامة قبيحة تبرز أسنانا نخرة سوداء. ابتعدت عن النافذة وأنا ألعنه في سرّي. ألن يدعني بسلام أهنأ حتى برؤية وجهي في المرآة..

رقصة المطر الأخيرة

استقل سيارة أجرة. الطريق موحل. وفي السماء غيوم تنذر بمساء ماطر. السائق رجل في الثلاثين. يبدو جليا من تماسك وطراوة بشرة يده السمراء. انتبه لذلك حين ضغط السائق على زرّ المذياع...

في الثلاثين.. ترى كم بقي له من العمر ليموت.. أعاد بصره إلى الطريق الموحلة.. لاشيء يتغير.. كلّ الطرق تتشابه.. تحوّل المشهد إلى قطرة مطر صغيـــــــرة وباردة وهشة تنزلق بوهن على الزجاج الأمامي للسيارة. كم بقي له من الوقت ليصل. ولم ينتبه للأغنية التي ملئت السيارة موسيقى.

سائق في الثلاثين و مسافر في السبعين جمعتهما سيارة أجرة تسير بسرعة خمسين كيلومترا في الساعة على طريق كثيرة الأوحال...

قطرات المطر تنزلق على الزجاج وعلى الإسفلت وعلى الذكريات بحيوية كبيرة تكاد تبعث على الدفء... كان الخامس والعشرين من ديسمبر من عام.. لا يهمّ التاريخ أبدا.. إنّه سخيف وبلا معنى أو يكاد.

من المنار إلى سيدي بوسعيد صفقة رابحة.. أكثر من خمسة دنانير.. وإن كان الهرم كريما فسينفحه بالبقشيش. الجوّ ماطر.. هل ستستطيع الخيول أن تجري في السباق غدا.. اشترى أوراق الرهان منذ الأمس.. يترك السيارة قرب السياج ويدخل ميدان قصر السعيد لسباق الخيل. رقم عشرة هو المفضل لديه. يليه رقم ثمانية رغم أنّه خسر السباق الماضي. غدا يشتري عددا آخر من أوراق الرهان وفي الضوضاء التي ستغشي المرصد يستعين بنصائح أصحابه. النبي محمد عليه الصلاة والسلام كان يحبّ الخيول. و ليس الرهان كالقمار. واللعب تسليته الوحيدة في هذه الحياة. أليست الحياة لعبة و قمارا ومراهنة..

سيارات قليلة تحاول الثبات على الطريق اللزجة. شرطي المرور يتسلى بقراءة أرقام السيارات الحمراء. السيارات الزرقاء يأتي دورها بعد ربع ساعة.. لا رغبة لديه اليوم لاستعمال صفارته.. الرشح الذي أصيب به منذ يومين يعيق تنفسه.. وفي الجوارب أقدام متجمدة... لماذا عليه أن يقف في حين يسير الآخرون. وأحسّ في نفس الوقت الذي أطلق فيه تساؤله السخيف أنه يقف لأنّ عليه أن يقف بينما يسير الآخرون لأنّه عليهم ألاّ يقفوا حيث هو واقف... أضاع عليه هذا التفكير متعة قراءة أرقام السيارات الحمراء. قرر أن يعاود العدّ بعد انتهاء الإشارة الضوئية..

تثاءب العجوز في السيارة.. ماذا ألم نصل بعد... هل سنقضي بقية الوقت في هذه السيارة النكرة. وعاودته آلام ركبته.. اللعنة على الطبيب... أيعجز أن ينقل الألم من ركبته إلى ركبة شخص آخر.. ندم على خروجه لكنه سئم كلّ شيء.. سئم اللوحات الجدارية على حائط غرفة الاستقبال.. الزرابي التي تكتم أنفاس خطواته المهزوزة وتثقلها.. الهاتف الذي لم يعد يرن. حساء الخضر بغير ملح.. سئم الصور العائلية الباهتة.. سئم الحروف المتقاطعة.. ونشرة الأخبار.. وجرعة الدواء المر قبل النوم.. ورائحة البول التي تنبعث منه بسبب عدم قدرته على التحكم في عضلات مثانته المرتخية.. سئم الذكريات البعيدة.. وصور أصحابه في صفحة الوفيات.. وسئم صورته في المرآة..

تحسس عكازه.. هل أصبحت هرما إلى هذا الحدّ.. استرق نظرة إلى وجه السائق.. بماذا يفكّر.. لو يغلق المذياع لحظة و يبتسم لي.. يهديني سيجارة ويغمرني في دفء عمره. أحتاج أن تفارقني كآبة هذا العمر..

لا أحداث خارج السيارة والطريق وشرطي المرور وتباشير المساء الماطر.. المذيع الذي يقرأ أنباء الساعة الخامسة يشعر بثقل الأيام التي تسبق النهاية.. نهاية السنة.. لا جديد بالمرّة.. وفي العراق جوع.. ما مرّ يوم على العراق دون جوع.. وفي ليبيا الحصار و في الصومال حرب وفي أثيوبيا جوع على جوع.. أشغال قمة ستنعقد.. مداولات الميزانية.. اقتصاد السوق.. محاكمة الرئيس الأمريكي.. شتاء بارد هذا العام.. ألا يصمت المذيع قليلا.. ليس صحيحا كل ما قاله كذب.. كلام صحف فارغ.. ترهات واختلاقات وسرقات عن وكالات أنباء بلا ذمة... تونس بخير.. الأمة العربية بخير.. العالم بخير.. الذين ماتوا بخير.. والذين سيموتون بألف خير أيضا.. وكذلك الذين سيولدون... كلّ شيء بخير.. والألم الوحيد في ركبتي..

وصلت السيارة بهما إلى قرطاج.. إلى أول سطر في تاريخ البلاد.. تعج بآثار الذين جاؤوا ورحلوا والذين لم يرحلوا بعد... من النافذة نظر إلى الأطلال.. ورأى من بعيد وجه شبابه.. غير أن آلام ركبته أيقظته من أزمة التذكر.. ماذا يضرّ البلاد لو يتبرع له أحدهم بركبته بدل التي اهترأت...

توقفت السيارة فجأة فاستفاق من أفكاره.

-هل وصلنا؟

ثاني جملة ينطقها منذ أكثر من ربع ساعة.. لم يعره السائق انتباها.. كان يلعن الجوّ الماطر وهذه النقلة التعيسة.. أوقف السيارة وخرج صافقا الباب وراءه.. فتح غطاء السيارة.. مكث أكثر من سبعة دقائق ثمّ عاد بوجه كالح... استوى على مقعده.. نظر إلى الطريق أمامه.. أغلق المذياع فانقطع صوت المؤذن وهو يدعو لصلاة الغروب..

-الشمعة احترقت..

- آه ماذا قلت؟

صرخ فيه أن الشمعة احترقت.. صرخ فيه و كأنه السبب... سبب كلّ شيء سيء لا احتراق الشمعة فحسب.. بل سوء حظه في الرهان.. إخفاقه في دراستـــــــــه.. عقمه.. خيانة زوجته.. و هزيمة العرب.. بدا العجوز و كأنه لم يفهم..

- لم نصل إذن..

أوشك صبر السائق على النفاذ.. فوانيس الطريق تشي بسيول المطر المنهمر بغزارة.. و الهرم على المقعد المجاور يتحسس ركبته مغرقا في صمته..

- ستة دنانير ومائة و ثمانين مليما..

بدا له للمرة الثانية أن العجوز لم يفهم.. فأعاد طلبه محاولا الحفاظ على هدوء أعصابه..

- رباه.. ستة دنانير كاملة... فقط لو كنا وصلنا..

أسند عكازه إلى فخذه وأخذ يبحث في جيوب معطفه. بحث طويلا بيديه المرتعشتين... السائق يتنفس بعنف.. يحاول التماسك..

ثم اخذ العجوز يبكي كطفل فقد أمّه أو هكذا بدا للسائق..

-نسيت محفظتي في المنار.. فيها أوراقي الثبوتية وفيها مالي.. كل جراية تقاعدي... أوراق نقدية كثيرة.. لو تعيدني إلى هناك أعطيك نصف المبلغ.. بل أعطيك المبلغ كلّه.. أعدني هناك أرجوك..

أخذته نوبة حادة من السعال حتى شرق بدموعه.. وتساءل لماذا خرج في هذا الوقت بالذات.. و تساءل ماذا كان سيجني من رؤية البحر المتوسط وهو يغتسل بالمطر البارد... ولم ينتبه كثيرا لغضب السائق الشاب وشتائمه التي انهارت على رأسه المنهك تلعن سيارات الأجرة بالتقسيط.. والديون المتراكمة.. وسوء الحظ.. والزوجة العاهرة.. والمطر وشمعة السيارات.. وهذا الزمن المعفر بالخيبة..

خف بكاؤه.. أصبح ذهنه أكثر صفاء.. أدرك أنّه لم يكن يبكي خجلا.. كانت محاولة بائسة ليجعل السائق الشاب يقترب منه قليلا... قليلا فقط.. بما يكفي كي يحس بإنسانيته.. أو ما تبقى منها.. تمنى لو يبتســـــم له قليلا و يربت على كتفه المنهكة.. لو يقول له يا أبي..

وصمتا فجأة.. تبادلا النظرات كغريبين يلتقيان صدفة أو قريبان متنافران.. ثمّ خرجا من السيارة... وقفا تحت الفانوس المعلّق المبلل بالمطر... انتظرا لأكثر من نصف ساعة ولم تمر سيارة أجرة واحدة.. وسألهما مرتين شرطي حراسة عن سبب توقفهما بذلك المكان ثمّ فحص بارتياب أوراق السائق وسجل رقم بطاقته و نصحهما بانتظار القطار..

آلام ركبته تعجزه عن المشي السريع.. وخطوات رفيقه تتجاوزه في كلّ لحظة.. أذناه لم تسمعا ندائه الواهن... وفرق بينهما الطريق..

وجد نفسه وحيدا وما معه غير عمره والألم... وحين وصل إلى المحطة ألفى القطار وقد أمضى بعيدا في اتجاه تونس البحرية..

دهشة

استيقظ في ميعاده تماما. السادسة إلا الربع صباحا. أزاح عن رأسه الغطاء. وطرطق عظامه كالمعتاد وهو يتثاءب. غير أنه لم يسمع صوتا.

فرك عينيه وألقى الغطاء بعيدا. مد يده بحثا عن زر الكهرباء. وأشعل المصباح قرب السرير. مد رجليه يبحث عن الخف. لبسه ثم استوى قائما. ولأول مرة في حياته تفارقه آلام ظهره التي رافقت صباحاته منذ أن جاوز الخامسة والخمسين ولم ينتبه إلى أن أقدامه لا تكاد تلمس البساط في أرضية الغرفة.

توجه إلى الحمام. جاهد في المحافظة على توازنه بأن استند إلى الجدران في طريقه. دلف الحمام. أشعل النور. وفتح حنفية المغسل فنزل الماء ساخنا. رأى البخار يتصاعد كثيفا. نزع بيجامته ووقف تحت سيل الماء. لم يحس شيئا.

بدت له المياه المتدفقة رغم بخارها الذي غطى الضوء الشاحب بلا حرارة معينة. فرك جسمه مليا بالصابون فانزلقت الفقاقيع على جسمه راسمة أشكالا انسيابية... لم يحرق الصابون عينيه... تحسس جسمه الذي بالكاد يقف منتصبا في حوض الغسيل. عد أصابع يديه وقدميه. حك الشعر النابت على ذقنه وهو يتثاءب... لم يحس شيئا ولا حتى الشعرات الغليظة الحادة التي كست وجهه. لا شيء يعلق بأوردة دمه. ولم تصل الدماغ أية معلومة عن وضعه الجديد... أغلق الحنفية. خرج من الحوض ووقف أمام المرآة التي غطاها الضباب. مد يده وهو يكافح لكي يسند طوله، مسح البلور البارد ونظر إلى انعكاس ظله.

رغم النور الخافت بانت له في المرآة صورته مفصلة بدقة. بانت أمعاؤه. ومعدته. وقلبه الذي مازال ينبض. وأوردته وشرايينه وأطلت تفاصيل دماغه من وراء الجمجمة. رأى كل شيء... حتى كريات الدم التي تحمل الأكسجين إلى مختلف أعضائه تمكن من رؤيتها للمرة الأولى في حياته دون الحاجة للقيام بتصوير بالأشعة. رأى كل شيء ولم يندهش.

ابتسم لصورته في المرآة فتمطت عضلات الخد والشفتين. وتمتم صباح الخير. فخرجت الكلمات طائرة في شكل فقاقيع صابونية. انتشرت في جو الغرفة المثقل بالرطوبة.. تهادت قليلا في الفضاء ثم انفجرت وسالت منها خيوط من دم غطت جدران الحمام وأرضيته. ألقى على نفسه نظرة أخيرة وقرر ألا يحلق ذقنه. لف جسمه جيدا بالمنشفة وخرج من الحمام.

توجه إلى المطبخ.

الساعة السادسة وخمس دقائق. أشعل الضوء فانعكس على الموجودات. كل شيء مرتب بدقة. كما تركه ليلة أمس. فتح الثلاجة وهو لا يكاد يقف على قدميه. أخرج علبة الحليب. سكب في الوعاء مقدار كأس واحدة. أضاف ملعقتي بن وأشعل الموقد. أخرج من الخزانة كيس الكرواسون أخذ واحدة وأعاد الكيس إلى مكانه. أشعل جهاز التسخين وضع فيه قطعة الكرواسون وعدل حرارته. استند على حافة الرف. أنزل وعاء القهوة من على الموقد وحركه مليا بالملعقة ثم سكبه في كأس. تناثرت بعض القطرات الساخنة فأصابت يده. نظر إلى جلد بشرته فرآه يصطبغ بالحمرة. وأيضا لم يحس بشيء. أخرج الكرواسون التي سخنت تماما. وضع الكل في طبق وخرج.

المسافة ما بينه وأرضية الغرفة تتضاعف مع كل خطوة. ويتضاعف كذلك جهده لجعل قامته منتصبة. توجه إلى غرفة الجلوس. جلس على مقعده المفضل قبالة التلفزة. وأمسك جهاز التحكم عن بعد و واختار قناة الراي أونو. كان برنامج أول الصباح قد بدأ منذ دقائق. رفع قليلا في الصوت وسوى وضع الطبق على ركبتيه وبدأ يلتهم إفطاره بشهية واضحة.

أمامه على الشاشة صور المركب الذي أوشكت على الغرق على مشارف لامبدوزا بجنوب إيطاليا. فيه مئات الحارقين. ظهر على الشاشة المذيع وهو يكاد يبكي متأثرا بوجوه الأطفال الذين عصر أمعائهم دوار البحر ولا زاد لهم غير قطع البسكويت الجاف بعد أن نفذ الماء. وأبرزت الكاميرا بوضوح وجوه النساء الشاحبة والرجال الذين نبتت لحاهم وزاغت عيونهم وهم يحاولون الإشاحة بوجوههم عن عدسة الكاميرا المركزة عليهم.

كاد المذيع يبكي وهو يتحدث عن الوضعية الصحية الحرجة لهؤلاء المتسللين. وكانت الكاميرا تقترب من الوجوه أكثر ملحة في إعطاء تفاصيل ضافية. وفرقة حرس الحدود توزع على الجميع قوارير الماء والأغطية.. وسيارة الإسعاف تنقل المرضى أو المتظاهرين بالمرض إلى أقرب نقطة صحية.

انتهى من شرب قهوته. ترك الطبق على ركبتيه واستمر في متابعة الوجوه الشاحبة التي لم تعرف النوم منذ ليال وهي في عرض المتوسط قبل أن تلقي عليها القبض دورية مراقبة الحدود الإيطالية. كان مركبا قديما. وتساءل المذيع كيف استطاع الصمود بكل هذه الحمولة وبكل ما فيه من أعطاب. كانوا من بلدان المغرب وإفريقيا ومعهم بعض الأتراك والبولونيون... وجوههم قذرة.. يكاد الدود يقفز من نظراتهم الحائرة. الخائفة. الجائعة... المرتعبة مما سيصيبهم بعد أن فشلوا في الوصول إلى أحلامهم... ينظرون إلى أبعد من عدسة الكاميرا. إلى أموالهم التي ضاعت.. شقاء السنين.. أقراط الأمهات.. عرق الآباء..الأموال المسروقة.. المتسولة... ووعد العمر... ورائحة الخيبة.. والكثير من القهر.

تحدث المذيع عن بعض المتسللين الذين ألقوا بأنفسهم في عرض البحر.. عن امرأة حامل لا تعرف السباحة وعن شابين مجهولي الهوية.. وتحدث عن مهارة الرجال الضفادع الذين سينقبون المياه الإقليمية الإيطالية ليعيدوا الجثث لأهلها... بدا على المذيع التأثر.. وكان هو يحاول الاستمتاع بقهوته الصباحية التي بلا مذاق.

تمام السادسة وخمس وأربعين دقيقة صباحا. عاد إلى غرفة نومه مستندا إلى الجدران. فتح خزانة ملابسه. أخرج بدلته الرمادية الجديدة ومعها قميص رمادي غامق وربطة عنق رمادية ذات نقوش صغيرة صفراء ناعمة. لبس بياضاته وجواربه الرمادية ثم القميص والبدلة والحذاء.

نظر إلى وجهه في المرآة فابتسمت له جمجمته المكسوة بشعره الرمادي. تعطر بعناية رغم أن رائحة العطر لم تصل إلى أعماقه كالمعتاد. لبس نظارته السوداء وساعة يده وارتدى المعطف الطويل وأخذ مفاتيح السيارة والحقيبة. أطفأ الأضواء وهو يجاهد في وضع أقدامه على الأرض دون أن يفلح في ذلك. ترك التلفزة تعمل وخرج.

السابعة إلا خمس دقائق. شغل محرك السيارة فأصدر صوتا مبهما ثم سكت. عاود المحاولة مرتين قبل أن يخرج من السيارة ويغلقها. توجه في مشقة إلى محطة القطارات. مع كل خطوة كانت المسافة ما بينه واسفلت الشارع تزداد. استند على جدران البيوت في طريقه.

طلب تذكرة درجة أولى في اتجاه تونس العاصمة. فخرجت الكلمات طائرة على شكل فقاعات الصابون. لم ينتبه عامل التذاكر لذلك. فبقيت الكلمات تحوم برهة في الفضاء البارد ثم تفجرت وامتزجت بالصباح الشحيح بألوانه. وقف ينتظر القطار والريح ترسم أشكالها الموسمية تحت أقدامه.

تمام السابعة. ما تزال السماء تحتفظ بآخر نجومها الآفلة في ليلها النوفمبري الطويل الذي يمتد من المساء إلى المساء. في الهواء رائحة مطر قادمة تعد بغسل الاسفلت بشكل جدي. وكان واقفا أو يكاد منزويا في ركنه البعيد. يجاهد في جعل جسمه الهلامي المكسو باللون الرمادي في تدرجاته يبدو مستقيما. وجاءه صفير القطار ملوحا من بعيد. تزاحم الناس على الأبواب. وصعد هو في الدرجة الأولى ململما خطواته الهاربة عموديا.

ألقى بجسمه الخفيف على جلد المقعد. تلاشت البرودة الصباحية قبل أن تخترق عظامه. ومن النافذة توالت مشاهد الصباح المتثائب بكسل. للبحر النائم في أحضان المدينة الناعسة والمتناثر بلذة على الرصيف الحجري قبل أن يدهمه الصباح الحقيقي رائحة تشبه الحب.

مر قربه بائع الصحف في رحلته اليومية الطويلة من أول القطار إلى آخره. طلب جريدة لابريس وأعطاه النقود. التصقت فقاعة الكلمات بأنف البائع. لم ينتبه إليها ولا إلى اللون الأحمر الذي صبغ وجهه ويديه وعناوين الأخبار. تناول الجريدة. ونظر إلى العناوين. توقف القطار في محطة أميلكار

فطار من مقعده وارتطم بالمقعد المقابل ثم عاد إلى مقعده. كان وحده في مقصورة الدرجة الأولى. سوى وضع معطفه وحقيبته وعاد يتصفح الجريدة.

قرأ كل عناوين الأخبار. وعلى زجاج النافذة انعكس وجهه الذي انطبعت عليه الحروف السوداء الغليضة. وكان يفقد توازنه كلما توقف القطار في محطة ويعود فيسوي وضع معطفه والحقيبة.. السابعة وأربعين دقيقة. نزل من القطار وسط الزحام. أقدامه لا تقوى على معانقة الرصيف. لم ينتبه أحد لمعاناته...

خرج من المحطة. تخترقه الريح من كل جانب. المقاهي تجاهد في التستر على من عصى في هذا الصباح الرمضاني البارد. حاول قطع الطريق ولم ينتبه إلى أن الضوء كان أحمر فصدمته شاحنة وطيرته في الهواء. لم ينتبه أحد للأمر ولا حتى السائق.. ومضت الشاحنة بعيدا في طريقها.

سقطت منه أوراق الجريدة على بعض أسطح المدينة. وفي طيرانها سقطت منها الكلمات والصور وسال الحبر الممزوج بأول خيوط المطر اللزجة. تناثرت محتويات الحقيبة في فضاء المدينة التي لم تغتسل بعد من ليلها.. وسقطت أقلامه تحت أقدام المارة المسرعين في هذا الصباح القصير..

وفي سماء المدينة المغمضة جفنيها تناثرت أحلامه المخبأة في الحقيبة... تحولت إلى عصافير سوداء وحلقت بعيدا.. التصقت صورة حبيبته بعمود الضوء. غابريال التي التقاها صدفة تجتاز الجنوب التونسي بحثا عن سمرة تدفأ برد حياتها.. والتي رحلت مع أول رجل أهداها عقدا من الماس ولم يكتف بالوعود مثله...

يطير الآن في الفضاء البارد... دون أن يندهش... منذ ألف عام كان قد فقد القدرة على الدهشة والانفعال... وفي تمام الثامنة وفي البرنامج الإذاعي همس الصباح الذي يسمعه رواد المقاهي وسواق سيارات الأجرة أعلن صوت نسائي ناعم عن وجود أجسام غريبة تشبه أكياس البطاطا تسبح في سماء المدينة.. ولم ينتبه أحد لصوتها الناعم الذي تحول إلى فقاعات تشبه فقاعات الصابون وخرج من موجات الأثير ليتكسر على الرصيف الذي اصطبغ بالحمرة.. ولم ينتبه أحد لأي شيء..

صوت الفجر

تسلل النوم من عيني سميرة... كانت تحلم وقد ضايقها ديك جارتها أم الهاني... صوت الديك قبيح يشبه صاحبته. متحشرج ومعقوف كأنفها... كسعال محتضر.. لا يتميز عنها سوى بالريش... عبثا حاولت سميرة أن تعود لنومها... لم تستطع... فكرت أنه ليس من العدل أن تحرم حتى من نعمة الغياب. وكان هذا الديك يصر على الإيذان بفجر كاذب...

تكورت فوق الحصير. أحكمت إغلاق عينيها.. تكورت أكثر.. حضنت رجليها بيديها المتخشبتين... بدأ الدم يغلي في عروقها رغم أطرافها المتجمدة وخواء معدتها.... من شقوق الباب يدخل الهواء البارد متلويا كأفعى برؤوس سبعة.. كأفعى بأنياب ومخالب.. نقاط الضوء الهاربة من مصابيح البلدية الهزيلة تحاول أن ترسم على الجدران الشهباء ظلالا... والغرفة هادئة...

كان من الممكن أن تتمتع سميرة بالنوم والنسيان لولا ذالك الصياح الذي خرق أذنيها معلنا عن لا شيء.. وكان حلما لذيذا ذاك الذي قطعه ديك أم الهاني... كانت تحلم أنها تأكل لحما.. لحما حقيقيا... سميرة لم تكن بخيلة على نفسها في الأحلام. فكثيرا ما تحلم أنها ترتدي أفخر اللباس. ولا تأكل في الأحلام سوى اللحم. ولا تعطي نفسها غير دور البطولة.. وكانت ستشبع في الحلم لولا صوت الديك المتحشرج المعقوف كأنف صاحبته..

منذ العيد الماضي لم تذق سميرة لحما ولا مرق لحم.. في ذلك اليوم أعطتها أم الهاني قصعة مليئة بالكسكسي تتوسطه لحمة كبيرة.. لحمة حقيقية.. يومها نسيها الجميع.. وحتى هي نسيت نفسها فلم تخرج للشارع كعادتها.. كل انشغل بنفسه. وأم الهاني فقط هي من تذكرها.. وفي هذه الليلة التي لم يغب فيها القمر كان حلمها لذيذا.. تتوسطه لحمة ضخمة بحجم الفيل.. لولا صياح الديك...

تعرف أم الهاني جيدا. تعرفها وتعرف أنها تصبح في بعض الأحيان رقيقة وناعمة كثوب داخلي شفاف.. رأت سميرة أثواب نسائية جميلة مدلاة من حبال الغسيل لكنها لم تفكر يوما في سرقتها... فسميرة لم ترتدي في حياتها ثوبا داخليا...

تعرف أم الهاني جيدا. تعرفها وتعرف أنها تصبح في بعض الأحيان فظة عنيفة وبغيضة إلى أقصى حد.. كأسلاك معدنية شائكة وصدئة.. كتلك التي غاصت في يديها وأدمتهما يوم حاولت التسلل إلى داخل البيت المهجور المغلق بالقوة العامة.. يومها حاولت سميرة معرفة ما بداخل البيت الكبير من باب الفضول لا غير. لكن الأسلاك التي غاصت مليا في يديها ووجهها حالت دون ارواء ظمئها للمعرفة...

وتعرف سميرة أيضا أن أم الهاني بعد أن ترملت بأحد عشر شهرا أخفت مولودها الذي تحول إلى كتلة من اللحم الفاسد في كيس القمامة ووضعته في الظلام تحت جدار الخربة المقابل لوكالتهم المتهدمة... في تلك الليلة أربعة فقط كانوا على علم بذلك السر. أم الهاني. الله. الشيطان. وسميرة التي تعرف أدق الأسرار دون حاجة للسؤال والتي آلمها أن ترى الكلاب تتخطف الجسد المتعفن المرتخي. وهي التي تجاوزت الخمسين ولم يفكر أحد في منحها طفلا. أو النظر إليها على أنها امرأة... أو حتى اغتصابها... كم كانت سميرة ستفرح لو فكر أحدهم يوما ما باغتصابها. كان ذلك سيعطيها على الأقل إحساسا ولو قاسيا بأنوثتها... تلك الأنوثة التي لا تشبه في شيء ما منحته الطبيعة لبنات جنسها..

الخريف بارد ينثر هوائه المشحون كراهية داخل الغرفة.. وتدمي أعواد الحصير المهترئ ضلوع سميرة.. تدمي جوعها.. وحدتها.. إحساسها بالبرد.. وصوت الديك القذر يحول أعصابها أو ما تبقى منها إلى كتلة متوهجة من الغضب.. إلى إعصار يعصف بكل الصور التي اختزنتها ذاكرتها.. يحولها إلى سيل يجرف كل الآلام والذكريات البعيدة....

تململت سميرة تحت اللحاف. تكورت كقنفد عجوز. ثم نهضت بعزم.. من يعرف سميرة يمكنه دائما أن يتوقع الأسوأ حين تغضب. أما ما يمكنها فعله لو عقدت العزم على أمر ما فثلاثة فقط يمكنهم أن يدركوا ذلك. الله. الشيطان. وسميرة نفسها...

أركان الغرفة الواقعة في سطح الوكالة متهدمة الجوانب متقاربة. على الجدران المتشققة تحاول الأضواء المتسللة من الخارج رسم شيء ما.. تعبير معين. غير أن بقع الضوء تفشل في البقاء طويلا.. تتوحد مع الظلمة وتموت مشنوقة على ما تبقى من الجير.. من الشباك الصغير الذي نجى بلوره من التكسر بأعجوبة بدت بناءات المدينة الغائصة في وحل الخريف كسفينة توشك على الغرق في ذلك الفجر المتضايق. الفجر الذي يغالب الغثيان بعد ليلة صاخبة...

حبل غسيل يقسم الغرفة إلى نصفين غير متساويين... الحبل يتيم ككل ما في الغرفة... ولم تكن سميرة تملك ثيابا لتعلقها عليه. فيقي متأرجحا بين الريح المتسللة من فتحات الباب وتلك التي تتسرب من السقف المفتوح عند الزاوية على سماء بلا نجوم. بلا غيوم. بلا حياء.. لم تكن سميرة تملك ثيابا لتغسلها وتعلقها ثم تنتظر جفافها لتطويها أو ترتديها... لم تكن تملك شيئا أو تكاد. وما كانت لديها الرغبة حقا لتفعل لو كان لديها ثوب آخر غير فستانها العتيق ومعطفها الداكن المفتوح من عدة جهات. لذلك بقي الحبل اليتيم لا يفعل سوى أن يقسم الغرفة لجزأين غير متساويين...

فتحت سميرة الباب بحذر. أضواء البلدية تقاوم النعاس بضوء منكسر. وللهواء رائحة تجمد الأنفاس.. تقطع الأوصال. والفجر بعيد. بعيد.. أبعد من الغد.. ورغم ذلك لم يتوقف الديك عن

الصياح بصوته المتحشرج المعقوف. في الجو رائحة ملوثة بالبول والزبالة المتكومة على جدران الوكالة... وكان الديك كاذبا في حدسه. وصفيقا كوجه المدينة..

من الخف البلاستيكي الأزرق المهترئ تخرج أصابع أقدام سميرة كالإخطبوط.. كان خفا مسروقا... سميرة تختار بعناية الأشياء التي تسرقها. وتعمل على أساس قاعدتين لا تحيد عنهما أبدا. أن تسرق ما تحتاجه حقا. وأن تسرق ما يليق بها. لو سرقت حذاءا جديدا أو خفا جميلا لاشتبه في أمرها. لتتبعتها نظرات الجيران. ولتسائلوا همسا وعلانية عن مصدره. وقد يشي بها أحدهم. ويقبضون عليها. وهنالك شيئان تخافهما سميرة ولا تخاف سواهما. أن تنتفي أكوام الزبالة من المدينة. وأن يلقى بها إلى السجن. أما الله أو الشيطان أو المرض أو الآخرين فتلك مسائل ثانوية وليس لدى سميرة ما يكفي من الوقت كي تفكر فيها.

خف سميرة البلاستكي الأزرق الذي وهت أسلاكه وسقطت زهرته الحمراء الاصطناعية لا يصدر صوتا عند المشي... وكان الديك واقفا على حافة السطح مغمضا عينيه. فاردا جناحيه محتضنا الكون الرحيب. يلقي تحيته على من يمكنه الاستمتاع بشدوه المبكر.. مسترسلا في الزعق بأقصى ما يسمح به صوته المتحشرج المعقوف كأنف صاحبته..

مع كل خطوة في اتجاه الديك يتضاعف غضب سميرة. غضب عميق هي نفسها تجهل أسبابه. لكنه غضب يأتي من أعمق نقطة في ذاتها. يشبه الطوفان. يجمع في طريقه كل آلامها. يضغط على قرحة قلبها بكل عنفه. طوفان من القيح والتاريخ المشبع بالليالي السوداء يكاد يخرج من عينيها...

لم ينتبه الديك إلى وجودها. كان مستغرقا في مناجاته الطويلة. معلنا فجرا غير واثق من مجيئه. غير عابئ بالسواد المحيط به. ظل الديك مغمض العينين ومن منقاره الصلب المعقوف كأنف صاحبته ظلت تخرج صيحته الدائمة مبشرة بفجر كاذب... سرت في جسم سميرة الذي لا يشبه أي جسم آخر رعشة جعلت داخلها ينتفض بشدة. وتضاعف حقدها لسبب لا تدركه. أصبح الكون لديها، كل الحاضر والماضي وما سيجيء من أيام وكل الآخرين مشخصا في ديك لم تمنح الطبيعة ريشه من الألوان غير الرمادي.

تقدمت بخفة قط غير أن الديك حين اقتربت أكثر أحس بوجودها. فتح عينيه. قلص جناحيه. وصمت عن الصياح محاولا استيعاب الوقف. نظر أحدهما في عين الآخر برهة... في سماء المدينة المثقل بالنعاس بعض المصابيح ترسلا عبثا أسلاكا من نور باهت مخنوق... تقدمت سميرة بالخطوة الأخيرة. انتفض الديك. كاد يفقد توازنه. رفرف بجناحيه الثقيلين وسقط أرضا. ولم يصدر عنه أي صوت. خانته حنجرته هذه المرة.

تقدمت سميرة أكثر. تألق في عينيها وميض بارد وخاطف... من يعرف سميرة ويرى التعبير الذي اكتسبته عيناها لا بد أن يصاب بالرعب ويتراجع مذعورا. في عينيها موت محقق. شيء يشبه

خاتمة الأشياء. يشبه عنف الاحتضار. أو شهوة الثور لطعن القماش في حلبة تغص بالمبتهجين بكل النصال التي تتدلى من ظهره الدامي...

مدت سميرة يديها... أصابعها شاحبة وطويلة كأغصان النباتات المتسلقة... مدت يديها كمن يريد أن يقبض على عنق السماء. كمن يقبض على عنق المدينة والكون وكل الموجودات... الديك ينتفض في الزاوية. صامتا. خانه صوته وفضحه الضوء المرتعش... كان لا بد من المواجهة. وكان يعلم مسبقا أن خاتمته توشك كل لحظة على مد لسانها المشقوق في وجهه. وتقهقه عاليا..

خيوط الضوء تربت برفق على ريش الديك... تعطيه لونا مشرقا رغم الظلام المثقوب برصاص الضوء... ولدى سميرة رغبة كبيرة ملحة في الانتهاء من كل شيء دفعة واحدة... وكان الديك مستعدا رغم جبن صوته على المواجهة. إلى آخر ريشة وآخر رمق.

غير أن لا شيء يثني سميرة عن عزمها... لا شيء بالفعل... من يعرف سميرة حقا يعرف أن لا سبيل لرجوعها عن شيء عزمت عليها...

ووحدهما يعلمان تماما عزم سميرة. الله والشيطان. ولم تكن سميرة لتهتم بهما يوما... مخالبه القوية وهي تمزق يديها المتخشبتين لم تزدها سوى إصرارا... شيء غامض يمتد على طول مشاعرها وفكرها يقطر كآبة لزجة ورغبة في الانتهاء من كل شيء... من صوته البذيء... من وجه أم الهاني المشقق والمعفر بحصى الأيام... من غرفتها واطئة السقف... من الكلاب التي تنكش قمامة أيامها... ومن سميرة في حد ذاتها... من المدينة المخنوقة... ومن الجميع... رغبة عارمة في إسدال الستارة على كل شيء... شيء واحد غامض استحوذ على كل مشاعرها جعلها لا تفكر سوى في الإمساك به من رقبته...

تناثر ريشه على السطح المليء بالكراكيب وكل ما يفيض عن الحاجة. وكاد بمنقاره الصلب أن يفقأ إحدى عينيها. لكن لا شيء كان باستطاعته أن يقف في وجه سميرة حين تعزم على أمر ما... تراقصا على السطح زمنا... لكنها كانت الأقوى. أحكمت قبضتها على عنقه الهزيلة. فازداد هياجه وتضاعف تخبطه. وظل زمنا يضرب وجهها بجناحيه القصيرتين. ويخدش بأظافره يديها وساعديها. لكنها لم تستسلم... تحدت ألمها وألمه. وضغطت أكثر على الحنجرة الصدئة.

خارت قوى الديك. غير أن سميرة استمرت في الضغط أكثر فأكثر... وتحت أصابعها المتيبسة تفتت الحنجرة الواهية. تسللت من بين أصابع سميرة المحكمة حشرجة نحيلة... ثم مات الصوت للأبد... انتهت أغنية الديك ككل الأشياء التي لا بد لها من أن تنتهي... غير أن حفلة سميرة كانت قد بدأت للتو...

جسمه الحار المرتخي بين يديها يزيد من حدة غضبها... أحست أن ما بين يديها ذلك الجسم المرتخي المتدلي بانكسار والذي تفوح منه رائحة عفنة هو كل الآخرين... كل العالم هنا يتدلى من

بين أصابعها الدامية... كل الحاضر والماضي والآتي... كل الأشياء البغيضة وحتى الجميلة تتدلى فاقدة للحياة... كل المدينة معلقة برقبتها بين أصابع سميرة الخشنة الدامية...

نظرت إليه مليا. أمسكته من ساقيه فتدلت رأسه مفتوحة العينين كجرح قديم. منقاره المعقوف مفتوح كنصف ابتسامة. وعرفه مرتخي... نظرت إليه مليا. ثم ضربت الرأس على الجدار. ضربته مرة أولى. ثم ثانية فثالثة ورابعة وخامسة. ضاعفت الضرب. وفي المدينة التي تتململ في سريرها بقايا صخب وبقع حمراء وهواء بارد يجوس في الأزقة المظلمة... وعندما اختلط مخه بالطحالب النابتة على السطح. وسال الدم على أصابعها المتسللة من الخف. عندها فقط أحست سميرة بالارتياح...

دخلت غرفتها. رمته أرضا قرب الباب. ثم أخذت الحصير فأخرجته. وضعته أمام الغرفة ثم عادت إلى الداخل. أطرافها دامية وحول جراحها بدأ الدم يتوقف عن النزيف. أخذت الديك بين يديها. أمسكته من جناحيه ورمته خارجا على الحصير المهترئ. نزعت الحبل من مكانه. ولما لم يكن في الغرفة شيء آخر خرجت مجددا. سوت وضع الحصير ورمت الحبل في المنتصف. وفوقه وضعت الديك برفق هذه المرة. بحثت مليا في جيوب المعطف الذي سقطت آخر أزراره في المعركة. أخرجت علبة ثقاب وبقايا سيجارة. تربعت أرضا أمام الحصير... بعض الضوء بدأ يتسرب من السماء التي فقدت وجهها في مكان ما... بعض الخطوات في الشارع أخذت توقع بدأ يوم جديد. يشبه غيره إلى حد بعيد...

أشعلت سميرة عود ثقاب. تأملته بعض الوقت. ثم رمته على الحصير قبل أن ينطفئ... أشعلت عود ثقاب آخر. أحست بفرح حقيقي. فرح ينسل من داخل الذات.. حقيقي وغير مفتعل. ملأها الضوء المنبعث من العود الهزيل بفرح لم تعتده... تأملته جيدا وأشعلت بقايا سيجارتها. غاب خيط رقيق من الدخان في البرد الصباحي. وبدأ الحصير في اشتعاله الحقيقي. استهوتها اللعبة. فأشعلت عودا ورمته على الديك. ثم عودا آخر. وآخر... أتت على كل ما في العلبة من عيدان كبريت. أخذت نفسا عميقة من سيجارتها. وتأملت الحصيرة التي تأكل ألسنة النار أطرافها. نفثت من فمها الدخان وهي تتأمل ما حولها وكأنها تراه لأول مرة...

أعجبتها لعبة النار فنزعت معطفها ورمته لألسنة اللهب... كتمت ضحكتها كطفل يطل من ثقب الباب على امرأة قبيحة عارية... سرت في الجو رائحة الحريق والريش الملتهب... انتهت سميرة من سيجارتها. رمت العقب في قلب النار. ونزعت فستانها المهترئ. رمته للنار... ورغم البرد صفيق الوجه لم ترتعش. تصاعد اللهب الراقص... احترق الديك... مدت سميرة يدها عبر اللهب المتصاعد. أمسكت الديك أو ما تبقى منه. غرزت أظافرها في لحمه المسود. ومزقته بأسنانها. ولأول مرة منذ أن ولدت أحست سميرة بالدفء.. رغم أنها لم تكن ترتدي سوى الخف البلاستيكي

الأزرق الذي سقطت زهرته الصناعية الحمراء... ولم تسمع في تلك اللحظة سوى سعادة شفتيها وهي تنزلق بوحشية على لحم الديك المتفحم... ولم تنتبه لأقدام أم الهاني على السطح.

من بقايا الحصير انتشر في الأفق لهب أصفر موحل بدأ يخبو تدريجيا. كادت سميرة تحس بالشبع... لولا صوت أم الهاني المتحشرج المعقوف الذي يشبه ديكها... أكملت أكلها كمن يوقن أنها اللقمة الأخيرة. وكادت تتجشأ لولا كف أم الهاني الغليظة التي أطبقت على رقبتها فمنعت الهواء عن رئتيها... سقطت من يدها بقايا الديك وأحشائه... بينما بقيت اليد الأخرى متشبثة بآخر لقمة...

لم تفزع سميرة ولم تندهش.. ومن يعرف سميرة يعرف أن أشياء قليلة ونادرة الوقوع يمكن أن تثير دهشتها... أحست كمن يستفيق من حلم لذيذ. ولم يكن لديها وقت كاف للتفكير في المقاومة... كانت عارية تماما إلا من خف أزرق مهترئ... لم تمهلها أم الهاني كي تستعيد أنفاسها... أم الهاني التي يمكنها في لحظات أن تصير ناعمة ومدهشة كثوب داخلي ناعم.. يمكنها في لحظات أخرى أن تتحول إلى كتلة من موت ومن صديد... سميرة لم تكن في الواقع مهتمة... في تلك اللحظة كان مذاق اللحم في فمها يثير لديها مشاعر دافئة... مشاعر لم تألفها..

بدأ سيل من الضرب والشتائم. وامتلأ السطح بالمتفرجين. لم يكن الأطفال ولا الرجال أو النساء محتاجون ليطلوا من الثقب على امرأة قبيحة عارية كي يضحكوا. كان عريها أمامهم من دون مقدمات. عريا قبيحا. داميا. عريا حقيقيا يتجاوز عري الجسد...

مزقت شعرها المجعد... أدمت وجهها بأظافرها... وأشبعتها عضا وركلا... استسلمت سميرة في البداية... استسلمت كمن يريد أن يتعود على وضع جديد... ثم بدأت في المقاومة تحت تصفيق وتصفير الجمهور المهتاج رغم الجوع والبرد الصباحي وآلاف الآلام... رفست سميرة برجليها النحيفتين المقوستين فاهتز كل جسمها... قاومت بصدرها الأعجف وكرشها الضخمة المتدلية... خدشت بأظافرها. وبصقت من خلال أسنانها النخرة التي مازالت نتف من لحم الديك عالقة بها في وجه أم الهاني... امتلأ السطح بالجيران وتحلقوا حول المرأتين.. قالت عجوز من الحاضرين بصوت واهن حرام عليكم.. غير أن أحدا لم ينتبه إليها فصمتت وعادت تتفرج...

استمر العراك طويلا حتى مل الناس وتفرقوا ولم يبق غير الأطفال... ولم تستسلم سميرة رغم عريها وتعبها... بدا لها وجه أم الهاني يختصر أزقة المدينة المتلفعة بعباءة من أكوام القمامة.... شبيها إلى حد بعيد بوجه الديك ذي الصوت المتحشرج... جمعت آخر قواها ودفعتها بعيدا عنها. لكن أم الهاني كانت تمسكها جيدا وسقطتا على بقايا الحصير الملتهب... بعد ذلك لم تعد سميرة تذكر شيئا... ربما كانت تحلم... غير أن الألم كان موجودا فعلا. ورائحة اللحم المحروق تزكم أنفها... ومن يعرف سميرة جيدا يدرك لا محالة أنها تتحكم في الذاكرة. تستطيع أن تسقط في بئر

النسيان كل ما لا تود تذكره. وكذلك فعلت مع ما تلا ذلك الفجر من أحداث... ومن يعرف سميرة يدرك أنها تفعل ذلك كي تستطيع البدء من جديد..

صخب

خرج يبحث عن شيء.. لا يدري بالتحديد ما هو.. ربما وجه امرأة.. أو قصيدة.. أو رفيق يخرج من دهاليز الذاكرة.. أو خطوات ضائعة.. أو وجهه في المرايا.. يبحث عن شيء يحبه.. لا يدري بالتحديد ما هو.. أو لعله نسيه.. كما نسي أشياء أخرى..

مشي متمهلا... قلقا... حائر النظرات.. تحيط به الواجهات البلورية من كل جانب... في شارع جمال عبد الناصر يتزاحم الناس حول أي شيء... يسرعون الخطى... ثم يبطؤون... يتجمعون حول واجهة زجاجية... أمام لافتة... أمام أي شيء... ثم يتفرقون.. يمضون إلى كل الوجهات الممكنة.. يمضون كحفنة أوراق تذروها رياح هذا الشهر ذي المزاج العكر... ذي الوجه المتغضن..

يعرف الطريق... يعرفه جيدا... لو أبعدوه ألف ألف عام وأعادوه لهداه في المشي قلبه... لو أغمضوا عينيه... لو سملوهما... لو غيروا خارطة الكون والأشياء... لو قطعوا يديه ورجليه وأحكموا الرباط على تجويفة العينين.. لزحف في طول الشارع وعرضه غير مستعينا حتى بالذاكرة... لو طووا الأنهج والأزقة... لو محوا المدينة من الوجود... لو محوا كل شيء وكان هو والشارع آخر الباقين لسار فيه دون أن يتوكأ على شيء ولا حتى على الرائحة...

تعرفه الشوارع دون الحاجة لسماع وقع قدميه على الإسفلت المهترئ.. دون الحاجة لانعكاس ظله على جدرانها المهترئة.. إنها رحمه الأول.. خطوته الأولى... آخر الحب... المساءات البغيضة... الحكايات التافهة... القصائد التائهة.. علب التبغ الفارغة... ووقع أقدام النساء على القلب الواهن.. دار الكاتب.. دار الصحفي.. حانة الطاووس الذهبي.. نهج مرسيليا.. محطة برشلونة... نهج المحطة... مطعم الشاهية الطيبة.. محطة القطارات.. باعة مناديل الورقية وعلب الشوينغوم بمائة مليم... كل شيء يعرفه.. ولا يعرفه منهم أحد..

أصداء الاحتفال الصامت تخترق الجمجمة... تسد المنافذ وتترك في الفراغات العميقة ثقوبا سوداء... تنغرز كالمسامير في حائط الأفكار المهدم... تسائل وهو يكاد يتعثر في عمود الضوء لماذا يرتدي الدود ربطة عنق وتركب الزرافات المصاعد الكهربائية... تسائل في داخله.. لماذا أخجل دائما من فكرة أن أسقط في الشارع فيرى الناس جوربي المثقوب وثيابي الداخلية المهترئة...

في شارع الحبيب بورقيبة أشجار قديمة على جانبي الطريق... عصافير اختفت خلف غيوم ذاهلة.. داست سائحة عجوز قدمه ولم تعتذر.. كانت ترتدي صندلا قماشيا أزرق وتبانا قصيرا وقميصا

خفيفا بلا أكمام.. كانت في شارع الحبيب بورقيبة ترمي في آلة تصويرها كل ما يعترض طريقها... وجه ابن خلدون وأبواق ملائكة الكنيسة وبعض الوجوه المنهكة.. خمن في داخلها أنها مثله.. يرتعش قلبها بردا رغم مرحها العجائزي..

للاحتفال رائحة تسري بالتواء في الهواء المعفر... رائحة تشبه ووجوه الأمهات.. تجعلك تحس بالوحدة والجوع لكل شيء... تلتقي النظرات... لا مفر لك منها ..ولو ترتدي ترابا وتنشر على الجسم المتفسخ كل دود الأرض... في الهواء تسري الذبذبات.. تلتقطها العيون... تفك رموزها... تحولها إلى أشياء لم تخطر على البال يوما... وتتبعث من تلك العيون مخالب ومراصد ووكالات أنباء كثيرة...

في الازدحام لا يستطيع إلا أن يلقي نظرة سريعة وحانية على نفسه المرتسمة على ما تبقى من حيز من واجهة.. ماذا فعلوا بك.. متعب أنت يا ابن خلدون في صنمك.. ملقى داخل أسوار من الورد.. يا باعة الورد أين رحلتم.. لمن تركتم الطريق.. لسكارى أول الليل وآخره.. للسواح.. للعشاق.. لباعة الصحف.. لباعة الجنس.. واللاجنس.. لطفل يعثر في الطريق وينهض ضاحكا.. لوجه أمي الذي يطل كالشمس على الأفق المزدحم بالإعلانات والشرائط الملونة... لا يتذكر أحد الطريق يوما.. لا يشتاق أحد لوجهك يا بن خلدون ولا لصوتي.. لا يشتاقني أحد..

يشتهي الدخول إلى قاعة السنيما.. يود أن يلقي نظرة أخيرة على المدينة التي استلقت للمخرجين والمصورين ضاحكة... في الجيب ثلاث ورقات... ورقة أولى إليها... ورقة ثانية لها... ورقة ثالثة ما زالت تحمل بياضها وفراغها.. وفي الرأس بقايا قصيدة قديمة ورائحة بيرة تطل من بعض زوايا الذاكرة.. صدره حبل غسيل لمناديل المدينة بعد ليالي الحب الساخنة... وفي المعدة أكثر من خواء.. لكل شيء..

تقدم بخطى غير واثقة.. يحس أنه سمكة في محيط متجمد... تراقبه العيون..ترصده.. ترصد فكره المرتعش كأرنب.. تجمع عدد كبير من المارة حول فرقة موسيقية هاوية.. حاول أحدهم الرقص خارج الحلبة على إيقاع حشرجة المغني ثم عدل عن ذلك..أنفاس حارقة لفحت رقبته فأدماه الشعور بالضيق وبأنه مراقب..

ابتعد عنهم.. بحث بعينيه عن الشحاذ الذي اعتاد رؤيته كل يوم مفترشا البلاط المعفر بقمصانه الثلاث المهترئة البارزة من تحت سترته العتيقة وأقدامه الحافية أبدا بأصابعها الملتوية...لطالما اعتبره في سره صديقا مخلصا وزميل كفاح.. لم يجد شحاذه.. اختفي في الذاكرة.. جر نظره المخدوش على البلاط بصمت متكدر ومضى..

أقدامه تؤلمه.. طابور المحتفلين يلاحق بعضهم البعض.. أحاديث شتى.. ضحكات صافية كسماء بلا غيوم.. فتيات يعاكسن لاجئا بوسنيا شعره أشقر يصل إلى كتفيه.. يحدثهن بعربية ممعوكة.. مدعوكة.. كسور عتيق يلبس برقعا من لافتات وإعلانات...

في سيره غير المتناسق اصطدم بفتاة سمراء تصبغ شفتيها الممتلئتين بأحمر فاقع... اعتذر لها مغمغما كلمات مبهمة... فابتسمت له... غير أنه مضى بعيدا دون أن يراها... لا رغبة لديه لفعل أي شيء... لا يقدر على فعل أي شيء.. ولا وقت لديه لفعل أي شيء... لا يدري ماذا يريد... وهذا الضجيج يفتت أعصابي.. يجتاحني.. يقضي على آخر حصوني.. يدكها.. ويدكني هذا الفراغ..

تساءل عن سبب خروجه هذا اليوم.. يذكر أن عليه الذهاب إلى مكان ما.. لكنه نسي تماما الشيء الذي خرج من أجله... كل ما بقي راسخا لديه هو أنه مراقب.. في السماء غيوم خبيثة تلهو بانعكاسات الظل.. تخفي وجه مساء قاسي الملامح... انتبه إلى طفل وأمه يسيران في اتجاهه.. بين يديه قطعة شكلاطة مستوردة... منذ متى لم يذق الشكلاطة... ولم يسر مع أمه في شوارع المدينة... اشتهى لو يعود طفلا... لو يرى عالما مختلفا..

مر قرب الاستعراض... ضجيجه مطرقة عظيمة... ورأسه دبوس هزيل.. والأرض فراغ صلب... حدجته المرأة بنظرة سامة وابتعدت عن طريقه مع طفلها.. غاصا في الزحام... في الاحتفال... المدينة كرنفال... كرنفال للمآسي الصامتة.. للنظرة المخطوفة.. والآهة المتكومة في الصدر منذ دهر..

... في الهند يغتسلون في نهر الغانج المقدس... فليت لي نهرا من البيرة أشربه فأصير قدسا من الأقداس... السكر أمنية الجائع الحافي.. أمنية بعيدة المنال.. ليتني كنت شخصا آخر.. ليتني كنت قارورة بيرة.. أحضن الشراب الأسمر في داخلي.. أنتشي بملمس رغوته في تجاويف جسمي.. وأسكر حين تضغط رقبتي الطويلة الباردة شفاه امرأة.. لا يهم أن تكون جميلة.. المهم أن ترتشفني لآخر قطرة في.. أن تمسكني بين أصابعها وتعانق زجاجي الملتهب... ليتني قارورة بيرة أو أحمر شفاه على فم فتاة ليل أو نهار.. لا يهم المهم أن تمرر لسانها الندي على شفتيها وتعانق في لحظة مخطوفة من الزمن لوني المتوهج.. المتحفز.. المتعطش لدفئها... ليتني أكتب هذه القصيدة.. ليتني كنت القصيدة.. ليتني كنت ولم أكن..

أحس بالوحدة والسأم.. حاول أن يستحضر بقية قصيدة امرئ القيس.. لا تبك عينك إنما.. توقف عند هذا المقطع.. ردده مرارا.. ونسي صدر البيت.. غاصت أفكاره في العتمة.. كاد يتعثر في عمود الضوء... اجتاز الشارع العريض.. سار في اتجاه شارع المنجي سليم... أدخل رأسه بين

كتفيه كسلحفاة هرمة.. أخفى أصابعه المتشنجة داخل جيوبه الخاوية... أحس بالتفاهة والعدم... لو مت يوما فستذكرني بلاطات الطرق الملتوية التي لا تنتهي... لن يبقى مني شيء سوى بدايات لأدب المزابل.. فأنا الحقير.. أنا المنهك.. المسلوب المسمول.. أنا الحشرة.. خلاصة نفايات المدينة.. دخان سيجارة حلوزي ضائع في الأفق.. أنا العدم.. أنا الهدم.. أنا العجز والترهات...

توقف أمام واجهة مغازة... لم يرى وجهه في البلور الملمع.. اختفى تحت التفاصيل... اختفت كل أحاسيسه وبقيت الواجهة خالية إلا من معلقات التهنئة بالاحتفال.. شيء ما يلقي به بعيدا عن كل اهتمامات الآخرين.. يضغط عظامه.. يفكك بعضه عن بعضه.. يسري فيه بعيدا وعميقا كليل الشتاء الطويل..

تمنى لو كان قطا صغيرا.. هزيلا.. أجربا.. مائع العينين.. وبلون الرماد.. جميل أن أكون قطا صغيرا يحتضر ببطء عند حائط هرم في سوق البلاط.. أو تربة الباي.. أو الصباغين..أو الدباغين.. أو سوق سيدي البحري.. أو أي جدار مائل في هذه المدينة... يتلوى جسمي.. تختلج مفاصلي.. يؤلمني اللهاث.. تعتريني قشعريرة مؤلمة.. تدوس على جسمي الموبوء.. تتسارع أنفاسي.. يسيل لعابي غزيرا بلا توقف.. تحوم حولي ذبابات يمتصصن لعابي الذي شكل خيطا غليظا بلون أصفر.. يلتصقن بوجهي... يتشربن القذى في عيني الواهنتين.. ينتشين بالسباحة في برازي الأصفر المائع.. ترتعش أوصالي.. يضيق صدري.. تلتصق بلاطات المدينة في عيني المتجمدتين.. يغشاني الألم ثم أغيب في سكرة الموت البارد.. تتيبس جثي عند أقدام الحائط الباكي.. ثم أبدأ في الانتفاخ.. قد يغفل المنظف البلدي عن رفعي عند الصباح مع الزبالة... قد أبقى هناك حتى ينفجر جسمي المعبئ بالدود.. فيفرح الذباب ويطير في فضاء رائحة موتي.. راسما تموجات تربك الأفق القاتم.. الخاثر.. المفرغ من الهواء...

أوشك أن يصل إلى الحفصية.. غير انه عاد أدراجه.. ينغرز فيه نصل الكآبة... من بعيد ينقر أذنيه وقع موسيقى الاحتفال.. تسائل عن السر في قدرة الآخرين على السعادة وعلى الرقص رغم كل شيء..

غاص من جديد في أفكاره.. دائما تلتهمك أفكارك المقيتة.. تلتهمك العيون دون أن تكترث بك.. وتلتهم نفسك المبتورة مع آخر ما قرأت من كتب..تغوص كوجه من جاء من سفر بعيد.. متعبا مكدرا ممصوص الدماء.. تغوص في ثقوب جواربك.. تغوص في رائحة الإسفلت الموشى بالبصاق وآثار البنزين وبقايا الزبالة.. وتتساءل كعادتك دوما حين تعود لذاتك عن لون الأغنيات البعيدة ولون البلاد التي تمشط في الشمس شعرها المليء قملا..

شيء عميق في داخله يدعوه للهرب.. عيون خفية ترصده.. من ثقوب الجدار.. أي جدار.. من السقف.. من السماء.. من البالوعات.. من ثقوب الإسفلت.. ترسم حوله حدودا لا مرئية.. وتضع

داخله أسوارا تمنع الهواء من الولوج إلى الذاكرة.. نسي عما خرج يبحث.. أو مما هو هارب.. من أيامه.. من أيام المدينة.. أو من وجهه في المرآة وفي عيون الآخرين..

في هذا الشهر يحس أن عليه أن يودع بما يليق به خريفا آخر.. وعمرا آخر.. ماضيه طويل.. لم يصل إلى حد الآن لحاضره.. ولا مستقبل له.. في هذا الشهر يصير للذكريات كل المعاني وألف ألف وجه..

في آخر الزقاق كانوا في انتظاره.. وكأنهم على موعد معه.. وكأنه على موعد معهم.. مع عيونهم التي تنظر من تحت سواد النظارات الشمسية لكل شيء.. حتى المشاعر.. المنفلتة من ذهن شاعر.. متشاعر.. لم يكن يجيد شيئا غير السير والهذيان.. نسي تقريبا كل شيء... حتى وجهه.. ووجه المدينة التي بصقه رحمها مرة.. وعاود ابتلاعه في كل مرة... انبعث من داخله صخب هامس يحاول اعادة سرد ما حصل في تسلسل مضاد...

عرق

العرق ينز غزيرا من كل زوايا جسده. قطراته تغطي وجهه. تتسلل إلى عينيه فتدمعهما.. ترسم خطوطا لزجة على لحيته.. تبلل شفتيه بطعم مالح...

تهب ريح الشهيلي. تدخل من الباب والنافذة. تجفف العرق.. فتلتهب جلدته وتأخذه رغبة ملحة في الهرش. لعن الحرارة.. تولد لديه يقين بأن الصيف هو فصل الموسرين فقط. الفقراء لم يخلقوا أبدا للصيف. لا يحتملونه... لا يملكون ما يتقون به سياط اللهب. وأفقهم لا يسع مصطلحا اسمه الاصطياف أو التمتع بالبحر..

حاول أن يركز تفكيره في شيء معين. المكتب ضيق كقبر.. ليس لديه عمل مستعجل... المدير اللعين ربع شاعر وربع ابن عاهرة ونصف مجنون.. تسائل عما أتى به إلى مكان كهذا... إلى هذه البؤرة التعيسة التي سميت عبثا دار ثقافة في حي شعبي بائس لا هم لساكنيه سوى طرد الذباب من المطابخ العفنة وشراء الخضار بالتقسيط... رأسه تؤلمه... وما يؤلم صدره هو الضمأ.. الظمأ الحقيقي..

يشتهي زجاجة بيرة. يشتهي نصف زجاجة. ربع زجاجة. كأسا واحدة. يشتهي قطرة واحدة يطفئ بها هذا الظمأ العميق... أصبح كتلة عرق... بالأمس دعته زوجته لبعض العناق فأكد لها في ابتسامة معتذرة وشاحبة انه لا يستطيع شيئا في هذا الحر. في الصيف يصبح كائنا غير جنسي... لا يحتمل أي احتكاك... الطقس مقرف... فقط لو كان يملك ما يكفي من المال لاتبع ظل الشتاء عبر أنحاء العالم.. الشتاء بالنسبة له فصل حقيقي يمكنه أن يتحرك فيه بحرية.. يمكنه أن يتنفس فيه هواء باردا منعشا ولذيذا.. يمكنه أن يعود إلى إنسانيته.. أن يكتب شعرا في الشتاء... أن يخلق من جديد...

لعن الإفلاس. لو يجد من يقرضه مائة دينار.. يذهب فورا إلى اقرب حانة. يطلب زجاجة أولى. يسكبها ببطء في الكأس العريضة. يرقبها تفور... يستنشق رائحتها... يتملى طويلا رغوتها البيضاء ثم يرشفها على مهل... تزوره أبيات لأبي نواس... تراوده فينتشي بتلاوتها قرآنا داخليا ينعش روحه... يزداد ظمأه. يطلب زجاجة ثانية فثالثة ورابعة.. فيطوف به النفري وابن عربي والحلاج... ثم يطلب صندوقا مليئة بقوارير البيرة المثلجة ويبتسم للنادل وهو يتحول إلى أبي العتاهية أو الخيام... فقط لو يجد من يقرضه مائة دينار لشرب كل الحانة وسبح في البيرة

المثلجة... ولا بأس أن يطوف بعد ذلك بكل ما قاله الشعراء والفلاسفة... حين يشرب يصبح حكيما وفيلسوفا وملكا وراهبا في معبد الخمرة... يصير للكون معنى آخر...

من النافذة تطل عليه هذه اللعينة. ترقص بكل حماستها كذبابة في عز الخريف. تسائل حانقا وحاسدا ألا ترهقها الحرارة الخانقة؟ نظر إليها ترتدي قميصا ورديا يكشف جانبا كبيرا من صدرها وذراعاها وسروالا ابيض. تبدو للوهلة الأولى وكأنها طفلة في التاسعة من العمر. غير أن تكور نهديها ومسحة كبيرة من القبح في وجهها تشيان بسنواتها العشرون... دعاها للدخول وتسائل عن الذي تريده منه...

دخلت بخفة قرد.. امتعض في سره. حسدها في داخله على نشاطها البادي رغم شمس جويلية الحارقة... مقارنة بها يحس نفسه دبا هرما... جلست قبالته على المقعد تفصلهما الطاولة... أعاد إليها القصة التي كتبتها. قال لها إنه يجدها جيدة... راقبها من تحت جفونه التي ألهبها العرق. يشك في أنها سرقتها من مكان ما... ابتسم لها في خبث فأجابته بابتسامة أخبث منها. تسائل في سره عما تريد منه.. نظرت إليه بعينيها السوداوين، كادت أن تسأله شيئا ما ثم عدلت عن ذلك...

فكر في أنها تتعمد ترك فمها نصف مفتوح. تمط شفتيها الغليظتين البغيضتين في ابتسامة تكاد تكون عمودية. تنقل بصرها ما بين عينيه وشفتيه.. اللعنة.. قال في نفسه.. كنت أظن أنني كائن غير جنسي في حرارة الصيف...لكنها تثيرني.. رغم قبحها... تدعوني لشيء ما..لشيء لا أحب التفكير فيه... وبالخصوص في هذا الحر...

غرق في العرق والحيرة معا.. ناداه المدير. أخرجه من دائرة أفكاره اللزجة.. كم يحسده على جنونه المبالغ فيه أحيانا. يحسده.. ذلك الكائن السباسبي الرحالة المتسول القادم من وراء روث البهائم والماعز... ذلك الذي أصبح ذات يوم وبلا سابق إنذار مديرا عليه والآمر الناهي في هذا المكان البعيد كل البعد عن كل الإدارات التي عرفها التاريخ البشري... سأله عن المفاتيح.. وأطلق أمامه وابلا من نيران النميمة وسيلا لا متناهي من الشتائم القذرة محاولا جعله يشي بزملائه... اللعنة.. ألا يصمت قليلا ريثما أحضر إجابتي.. يود لو يصفعه.. لو ينفث في وجهه كل غضبه وعجزه... لكنه لا يجد جرأة لتحويل كلامه إلى ردود فعل.. فقط يكتفى بالصمت..وبخصائه الفكري... لا يستطيع في هذا الحر أن يركب جملة مفيدة. أو أن يفكر تفكيرا منطقيا.. أو يتصرف كرجل..

عاد إلى مكتبه بعد أن سمع وابلا من الشتائم التي وصلت إلى سابع جدوده... مازالت جالسة في انتظاره. مدت ساقيها ووضعتها على الكرسي المقابل.. مالذي تريده مني بحق السماء.. لا أستطيع أن أقدم لك شيئا أيتها القبيحة الحولاء الشعثاء... في الصيف انزع رجولتي مع المعطف وأغلق عليهما باب الخزانة...

راقبها بحذر.. في الواقع لم تكن قبيحة جدا.. ببعض الجهد يمكن القول بأنها عادية أو دون المتوسط بقليل.. تبدو أصغر من سنها الحقيقي. نهداها مكوران.. حاول أن يحزر شكلهما وملمسها.. ومذاقهما.. كبت رغبة ملحة في لمس صدرها.. وارتجفت يداه. رغم الحر...

عاد إلى مقعده ثقيلا هرما يقطر عرقا. أشعل سيجارة. ابتسمت له من جديد. هذه العاهرة الصغيرة... سألها عن أحوالها وهو يحاول النظر من خلال دخان السيجارة. فأجابته إنها بخير.. تسائل في نفسه لماذا تصر على التطلع إليه بهذه النظرة المغرية. هل تتصرف بتلقائية أم أنها تجيد التمثيل إلى هذا الحد المقنع والمربك في آن... حدثها عن حرارة الطقس..قال انه لا يستطيع أن يكتب شيئا في هذا الجحيم.. أجابته أنها تستطيع الكتابة في كل الظروف والأحوال.. أيتها الكاذبة الصغيرة.. سأكتشف يوما من أين سرقت النص ولن ينقذك من براثني احد...

دمغته بنظرة قاسية كأنها خمنت ما يفكر فيه. ثم ابتسمت له.. قالت له ومن دون مقدمات إن عينيه جميلتان. ذهل قليلا.. تمالك نفسه كي لا تقفز الدهشة من كلماته... أحس انه أصبح عجوزا وهذه الفتاة الصريحة تعاكسه... تستفزه... تثير مشاعره الراكدة... وتعبث به... ود لو يعود بعمره عشر سنوات إلى الوراء.. لو كان اصغر سنا لافتك منها قبلة... وربما أشياء أخرى... أراد أن يختبرها. وضع يده الساخنة المبللة بالعرق على يدها الصغيرة البيضاء الناعمة. فلم تسحبها... بقيت تنظر إليه من دون أن ترتبك...

سحقا لهذه الفتاة.. هل هي متماسكة إلى هذا الحد... هل تجيد التمثيل إلى هذه الدرجة.. قال لها إنها لو سحبت يدها أو تصرفت بطريقة مغايرة لغضب منها لأنه يريد أن يؤسس معها مشروع صداقة... وكان يكذب... فقد كان يريد أكثر من ذلك..

صمت قليلا ثم عاد يأكد لها بأنه اكبر أنثى عرفها التاريخ ولم يكن يكذب هذه المرة... وأضاف بأنه يستطيع أن يكون صديقها لو أرادت أو حتى أختها الكبرى... سحبت يدها وغرقت في ضحكة طويلة دمرت ما بقي له من أعصاب... تسائل في سره كيف لها في مثل هذا العمر الصغير أن تعرف سر مفاتيح رغبة الرجال رغم أنها على هذا المقدار من القبيح...

حاول أن يسحبها في الحديث إلى حيث يريد.. تحدثا عن النساء... قال لها انه يحسد النساء.. يجدن دائما من يدافع عنهن. فأجابته دون تردد بان الرجال هم الذين يأخذون المبادرة وعليهم أن يتركوا فرصة للنساء لينلن نصيبهن... اللعنة إنها تستطيع أن تفكر في اتجاه وتتكلم في اتجاه مغاير تماما. يعرف بالتحديد لماذا جاءت اليوم إليه... يعرف لماذا تركت البقية واتت إليه.. أو هكذا خيل إليه... جزء من نهدها الأيمن يبرز من فتحة القميص.. ابيض كالحليب... يود لو يطاله بيده... صمت بعض الوقت ثم قال لها إنهم يدعونه القط.. فتحت عينيها في دهشة وبقيت شفتاها منفرجتين بشكل مثير ولم تنزل ساقيها عن الكرسي... تنحنح في مقعده مزهوا واخبرها عن إحدى مغامراته

الجنسية فلم تبد خجلا ولم تنزعج من كلماته النابية التي تعمد التلفظ بها والتفاصيل التي حشرها حشرا في القصة... بقيت ترمقه بنظراتها الواعدة. فكر أنها لو كانت ابنته لصفعها على صفاقتها... نظراتها البريئة والمندهشة والخبيثة في آن واحد تثيره وتصده. أحس أنه عليه أن يفعل شيئا ما. غير أن المدير ناداها فنهضت بتثاقل. ألقت عليه ابتسامة واعدة وابتعدت. راقبها وهي تبتعد. راقب شكلها الفوضوي اللامتناسق. وقرر أن يستلهم من صورتها نصا شعريا من الشعر الحر. تنفس هواء حارا وأحس ببعض الزهو... رغم تجاوزه للأربعين بسنوات لم يفقد جاذبيته... ربما لم تسرق النص..

الريح الحارة تدخل من النافذة وهو يجلس وحده في المكتب الضيق لا يفعل شيئا سوى انتظار انتهاء الصيف.. وعاد يفكر بها... تخيل أنها تقبله وانه يعانقها وينزع عنها ثيابها قطعة قطعة... تسائل عن مذاق قبلاتها.. وداهمه سؤال بديهي ترى ماذا تفعل الآن مع المدير؟

غابت قليلا ثم عادت إليه.. جلست قبالته. ابتسمت له. سألها بوقاحة ومباشرة إن كانت قبلت أحدا من قبل. صمتت قليلا وأجابته أن نعم. أحس أنها تكذب وأنها تريد أن تشعره بأنها تكذب.. نظر في عينيها مباشرة وقال لها إنني أريد تقبيلك. فصمتت. أعاد الطلب مجددا... ابتسمت وتركت كالعادة شفتيها منفرجتين قليلا ولم تعلق على طلبه.

الحرارة تكاد تخنقه.أتم الحكاية التي كان بدأها قبل أن يطلبها المدير. غرقا في صمت مشترك. كان صمته مرتبكا كطفل في العاشرة استعمل موسى حلاقة من أبيه دون إذنه.... العرق يقطر على الأوراق أمامه... ينزف عرقا.. قالت له إن الطقس اليوم حار جدا... وافقها بهزة من رأسه.. ود لو يتصرف معها كرجل..تنهد وصمت.

سألته عن أبنائه.. يالها من عاهرة.. تغريني وتدعوني ثم تصدني بذكر الأبناء.. تماسك وأخبرها انه يحاول جمع المال لختان طفليه التوأمين.. وعكس كل الانتظارات سألته عن الختان... البائسة التعيسة.. من أي ارض أطلت علي هذه الغريبة القبيحة.. وتذكر ألما بعيدا وعصفورة غابت خلف الغيوم وزغاريد النساء...

ابتسم رغما عنه وأخبرها انه أغمي عليه ذات حفلة ختان فابتسمت بدورها... أحس بالضيق. هذه الابتسامة البغيضة التي حفظ تضاريسها عن ظهر قلب. إنها تثيرني أكثر من اللازم... تثيرني أكثر من أي امرأة أخرى حتى لو كانت جميلة... هل عدت مراهقا كي اغرق متخشبا في مقعدي وهي تدعوني...

غادر كل الموظفين ولم يبق في الإدارة غيرهما. قال لها انه يريد تقبيلها. نظرت في عينيه وابتسمت. فتشجع. نهض من مقعده واقترب منها. تركته يقترب. تنفس رائحتها وكاد يصل إلى شفتيها الغليظتين. غير أنها أوقفته قبل أن يقوم بالحركة الأخيرة. انتابه الم من تلقى صفعة غير

متوقعة... تسائل لماذا... نظرت إليه في عينيه مباشرة ورجته بصوت خال من أي انفعال أن يعود إلى مكانه... أحس بالخوار والهرم يدب في أوصاله... عاد طفلا صغيرا متعثرا في خطواته.. عاد أنثى مرة أخرى... وقف متسائلا متشككا في فهمه لرغبتها. غير مصدق. أفلتت من بين أصابعه المبللة بالعرق خيوط اللعبة... نز منه عريق غزير بارد بلل داخله. وخطر له أنها تتمنع فجدد المحاولة... دفعته بلطف فعاد طائعا إلى مقعده مهزوما وغير مصدق.

حاولت أن تتكلم فأمرها بالصمت. نظرت إليه مليا وقالت إنها في الواقع تشتهيه وتود تقبيله... استغرب من هذا المنطق المجنون... أكيد أنها مريضة... امرأة غير عادية.. كيف تثيره وتصده وتؤكد له في نفس الوقت بأنها تشتهيه.. أحس بأنها تتلذذ بهذه اللعبة. قال لها إنه كبر على ذلك. لم يعد في وسعه أن يضيع ما تبقي له من العمر في المراوغات... قالت له مرة أخرى بأنها تشتهي تقبيله... نهضت عن مقعدها. تقدمت في اتجاهه. التقت نظراتهما. أمسكت رأسه بين يديها. تنفس رائحة عطرها. غاصت عيناه في عينيها. أحس الرغبة تلهب جسده. قربت شفتيها من شفتيه. فاقشعر بدنه وأغمض عينيه.... وببطء رفعت شفتيها وقبلته على جبينه. فتح عيناه غاصتا في صدرها الناهد. طغى الارتباك على كل حواسه.. لماذا تتلاعب بأعصابه في هذا الحر.. لماذا تركها تدرك كل نقاط ضعفه...

جلست في حركة غير متوقعة على أرضية المكتب المتسخة. أمسكت يده وقبلت أصابعه واحدا تلو الآخر. وغاصت رغما عنه أصابع يده الاخرى في شعرها الشائك. بقي صامتا ذاهلا ينتظر أن تنتهي منه.. حاول أن يفكر... سألها لماذا تفعل به ذلك... فضحه الألم المتحشرج في صوته... رفعت إليه رأسها الذي يشبه الإجاصة. نظرت في عينيه. بدت قريبة جدا... سألها مرة أخرى لماذا... ود من كل قلبه لو يصفعها... لو يؤلمها.. لو ينتقم لبعض ما تبقى من رجولته الغائصة في العرق... فلم تجبه.

المكتب الضيق أصبح جحيما لا يطاق. فكر أن عليه أن يعود لبيته وطفليه. أحس بالجوع.. نزع برفق يده من بين أصابعها وقال لها انه لا يستطيع أن يهديها سوى صداقته... ابتسمت له. ولمعت عيناها... قالت له إنها لا تطلب غير ذلك... اتفقا على البدء من جديد ونسيان هذه الساعة الأخيرة من هذا اليوم الحار...

وقفت أمسكته من يديه. قبلت كفيه والتمعت عيناها. أحس انه تسرع.. نهض بدوره وابتسم لها. لمعت قطرة عرق على طرف شفته السفلى. سرت البرودة المالحة في فمه. مدت أصابعها الصغيرة التي تنتهي بأظافر صبغت بالوردي. لمست شفته برقة. تابعت رسم فمه... غاصت في شعر لحيته... واصلت مداعباتها الخبيثة... لمست رقبته بلطف وتوقفت أصابعها عند صدره..

غاصت عيناها في نظراته الحائرة. أحس أنها تطلب أكثر من الصداقة. ولا يمكنه حيالها أن يكون صديقا فحسب.
سألها وقلبه يرتجف كعصفور مبلل الريش إن كانت تريده أن يصبح عشيقها. غاصت عيناها في عينيه أكثر. وابتسمت... قالت إنها لا تطلب غير الصداقة في حين كانت أصابعها ترسم على صدره دوائر لا نهاية لها...
أحس بالغباء وعدم القدرة على الفهم.... إنها تتعمد إثارته رغم قبحها وهو المخلوق الضعيف في مواجهة حرارة الصيف وأمام كل النساء بلا استثناء وبالخصوص القبيحات... استشعر خطتها في تدمير أعصابه وبأن اللعبة انسلت خيوطها تماما من بين أصابعه... داعبته من خلال القميص المفكوك الأزرار عن صدر نخرته السجائر والكحول.. نز عرق غزير على جبهته... تصاعد لهاثه... وكأي رجل في موقفه حاول تقبيلها مرة أخرى إلا أنها صدته بصرامة مغرية... تسائل عن معنى كل هذا... خيل إليه أنها لا تعرف بالتحديد ما تريده... قال لها محاولا أن يبدو صوته متماسكا بان ما تفعله الآن خطير... وافقته بهزة صغيرة من رأسها...

قالت له بصوت صغير فيه بحة بأنها هي التي بدأت اللعبة وهي التي بيدها إنهائها... ود لو يصفعها.. لو ينتقم لكل الرجال.. لو يبصق في وجه هذه الأنثى الحقيرة التي أفسدت عليه يومه.. إن كانت تريد أن تهين رجولتي أو ما تبقى منها فقد نجحت في ذلك.. نظر في عينيها. حاول أن يفهم التعبير الذي ارتسم عليهما. لم يجد شيئا غير لون أسود بلا عمق.. لعن الحرارة والعرق وكل النساء... أبعدها عنه بلطف زائد كمن يريد أن يتحاشى قذارة ما... أغلق باب المكتب وخرجا معا. رافقته في الطريق... سارا جنبا إلى جنب صامتين.. ثم قال لها فجأة إن رغبته في تقبيلها كانت صادقة... فأجابته في ابتسامة بأنها مستعدة الآن لتقبيله في الشارع لو أراد... تكلمت بصوت مرتفع... توقف رجل عجوز... نظر إليهما شزرا ثم مضى مستغفرا الله ضاربا كفا بكف... أحس بالخجل. اندهش من وقاحتها وجرأتها في تحطيم أعصابه رغم أنه منذ زمن فقد قدرته على الاندهاش... قال لها بأنه كائن اجتماعي.. فأجابته بأنها لا تهتم برأي الآخرين... أحس أن تلك الجملة هي اصدق ما قالته هذا اليوم... وقف قرب المنعطف. مد لها يده يريد توديعها غير أنها أمسكت يديه وحاولت تقبيله رغما عنه. تفادى الموقف بصعوبة. هذه المجنونة الصغيرة.. إنها تريد أن تبدأ اللعبة من جديد وفي الشارع هذه المرة...
امسك يديها وضغط عليهما بقوة. نظر في عينيها وتنهد مقهورا... ابتسمت له وتعمدت الالتصاق به أكثر. نز منه عرق غزير... قال لها وهو يجاهد أن يخرج من بين شفتيه صوتا إنسانيا. أتدرين ما هذا؟ وأشار إلى قطرات العرق التي تسيل من جبينه. أجابته بابتسامة طفولية ماكرة بأنها لا

تدري. قال لها إنه عرق الغلبة. وابتسم في كآبة. ودعها وسار في الطريق يلعن حرارة الطقس والأنثى التي تقبع في داخله.

سقوط

صمت ناجي قليلا ثمّ مال نحوي و قال لي هامسا كالمعتذر :

- أنت تعرف كم تبدّلت الأحوال..

توقّف عن الكلام ثانية، ثمّ سوّى وضع نظّارته الشمسية و عاد يسرّ لي بنفس النبرة الخافتة :

-و أنا، بالطبع لست غبيا إلى الحدّ الذي أدع فيه الفرصة تمرّ... ثمّ إن الوقوف عند الشكليات والأمور النسبية يعرقل التقدّم...

فقاطعته في احتجاج مكتوم :

- و لكنّك، منذ حين، كنت تؤكّد ..

إلاّ أنّه أوقف بحركة رشيقة من يده، أظهرت بوضوح معدن الخاتم في إصبعه، سيل الكلمات في فمي :

- أجل قلت ذلك و قد أقول أكثر من ذلك إن توفّرت الفرصة، لكنّك تعرف الظروف... ثمّ إنّ النساء

عاد للصمت مرّة أخرى ريثما ينتهي النادل من مسح غبار الطاولة ووضع فنجاني القهوة. حرارة الطقس لا تتناسب و نهايات الخريف.. و كنت جائعا و مفرغا.. عاريا كأشجار الخريف.. تملّيت ما حولي، المقهى نصف فارغ. الساعة على الجدار ثابتة، منذ دخلنا عند الثالثة و الرّبع. تملّكتني رغبة في الانحناء داخلي ومعانقة ذاتي المتربة، و في الصمت... و كنت ضجرا فأعادني صوت ناجي المتعرّج إلى ركني المعتاد .

- في البداية استغربت تبدّل موقف بثينة... كانت تغار منها لا بل كانت تحقد عليها.. وأنت تعرف طبعا مشاعر الحقد و الحسد التي تعتمل في نفوس الفقراء تجاه الأوفر حظّا .

حاولت مقاطعته ليشغل لي سيجارة من ولاّعته الذهبيّة التي تركها بإهمال متعمّد على الطّاولة قرب فنجان قهوته التي بدأت تبرد، لكنّه تجاهل إشاراتي ومضى يواصل سرده .

- و حين أصبحتا روحا واحدة في جسدين لم أبد اعتراضا... بسبب ثراء آمال.. ثمّ أنت تعرف كم تغيّرت الأحوال ..

توقّف عن الكلام فجأة و نظر بارتياب إلى الرجل الذي جلس لتوّه إلى الطاولة المجاورة ثمّ عاد يحدّق فيّ طالبا كلّ اهتمامي. في الحقيقة كنت قد بدأت أسأم حكايته و صوته الرّكيك و هذا المقهى الذي بدأ يكتظّ بمعطوبي الحروب النفسية... لماذا يصرّ على التمادي في سخافته.. كنت آمل أنّه قد و جد لي شغلا لكنّه بدل الحديث عمّا يهمّني يصرّ على التأكيد على تغيّر الظروف وتبدّل الأحوال..

كدت أغرق ثانية في أفكاري الباهتة و لكنّه داس بحذاء صوته الهامس على رأس أفكاري المفرغة و واصل :

-و حين بدأت بثينة تتخلّف عن مواعيدي.. و تضررت أوضاعي الماديّة و النفسيّة.. خفت... حاولت إثبات تفهّمي بهزّ رأسي إلاّ أنّ ناجي نظر في ساعته الذّهبية و عاد يقول لي و كأن المسألة لم تعد تعنيه :

-أجل خفت.. خفت أن أفقد خطيبتي الجميلة والمثقّفة و الذّكية ..

رشف من قهوته و ابتسم في غموض و هو يقول :

-وأنت يا صاحبي، تدرك و لا شكّ ضرورة أن تكون لك زوجة شابّة و جميلة و مثقفة و ذكية وبالخصوص.. متفتحة.. جدّا .صمت مجددا مفسحا لي المجال هذه المرّة فسألته مجاملا :

-و ماذا فعلت ؟

-لا شيء يستحقّ الذّكر، أجابني فقط ذهبت في زيارة إلى أهلها... و... رشوتهم.

فقاطعته غير مصدّق:

-كيف ؟ ألم تهددهم بفسخ الخطوبة على الأقلّ ؟

-بنظرة تأنيب لم أتبيّن سببها إلاّ حين قال ببطء وكأنّه يمضغ كلمات مستعصية :

- بثينة لم تكن في ذلك الوقت خطيبتي بشكل رسمي... نحن نسكن في نفس الحيّ و كنت أتساهل معهم في خلاص مشترياتهم من متجر أبي.. ثمّ إنني كنت أعطيهم من باب التودد و من حين لآخر بعض المواد الغذائية التي تكون قد انقضت مدّة صلاحيتها .

قلت فزعا :

- و لم يحدث لأحدهم شيء.. تسمم مثلا ... ثمّ ألم يتفطّن أحدهم للتاريخ المنصوص عليه فوق الغلاف...؟

فأجابني بهدوء

-طبعا لا, كنت أتحايل لمحو التاريخ من على العلب... ثمّ هل سمعت في حياتك يا صاحبي عن فقير يموت جراء التسمم ..وفي الحقيقة كنت أريد أن أبدو شهما في نظر الفتاة و لحسن الحظّ لم يكتشف أحد المسألة. لا هم و لا والدي ..

-و ماذا كان سيفعل والدك لو علم بالأمر ؟

-كان سيغضب حتما، فقد كان معتادا على بيع تلك المواد الفاسدة وتصريفها.. على كلّ حال استطعت أن أنال ودّهم... حتّى أنني أحسست برغبتهم غير المعلنة في تزويجي من البنت.. تصوّر.. وحين زرتهم كان ذلك لأعرف سبب غياب بثينة عن المتجر ..

سألته و قد بدأ صبري في النفاذ:

- فهل أطلعوك على السبب ؟

رشف من قهوته و أجال بصره في رواد المقهى ثمّ أجابني :

-تصوّر أن ذلك كلّفني رطلين من لحم الضأن و بعض الغلال.. المهمّ أنني عرفت كلّ شيء... ذلك أن بثينة لم تكن تغيب عنّي إلاّ لأنها تتابع مع صديقتها آمال دروسا خصوصية في اللغة الإنجليزية .

قلت و قد أحكم الضيق قبضته على صدري :

- فهل كانت بثينة في حاجة إلى تلك الدروس؟

فأجابني بحدّة و كأنّ تشبثي بمعرفة التفاصيل قد ضايقه :

-طبعا لا ..

ثمّ أردف و قد لطّف في نبرته :

- مادام الأمر لا يكلفهم شيئا و لم يكن ليكلفني نفقة فلم لا تستغل الفرصة.. خاصة وأن الأستاذ من هناك.. أتريد قهوة أخرى.. حسن.. لا بأس ستحتاجها..

في الواقع لم أستوعب حينها ملاحظته. لكنني رحبت بالقهوة.. كي أخدع جوعي على الأقل.. ثمّ لم لا أستغل أنا أيضا الفرص.. وعاد ناجي يقول بحماس:

- إنّها العولمة يا صاحبي.. وقلت في نفسي أنه باب الرّزق والدولارات و قد فتح عل مصراعيه.. وقد يصيبنا من ممثل هؤلاء القوم خير كثير ... أنت تفهمني طبعا

قطع عليه حماسته قدوم النادل و هو يحمل طبقا فيه فنجاني القهوة الجدد. كنت أحسّ بالعطش فطلبت زجاجة ماء و أشعلت سيجارتي بولاّعته دون أن أطلب الإذن هذه المرّة.. طبعا أفهمه وكيف لا أفهم.. يوم آخر يضيع في حديث لا ينتهي.. لماذا لا أستطيع أن أكون بنفس مستوى تفاهته.. الأوضاع تبدّلت.. حقّا.. رفعت رأسي المنهكة دلالة الفهم و أنا أسترق النظر إلى حذاءه اللاّمع.. لم أنتبه لخروج الشرطي من زاويته.. وجوه احتلت جزءا من المشهد. حماسة لاعبي الورق تذوب في روائح التبـــغ و العرق. الجالس إلى الطاولة التي بجوارنا يتأمل بإمعان حزين خطوطا ما داخل فنجانه.. أو يتابع نسج خيوط حكاية ما .

-و لكي لا يبدو عليّ أيّ أثر لأطماعي.. بدأ الجملة من جديد، وللمرّة الأولى نظر في عيني مباشرة وصمت عند عودة النادل بزجاجة المياه. ثمّ سكب لي كأسا نظيفة و هو يواصل كلامه الهامس وهو يأسر نظراتي المنهكة :

-و لكي يتسنّى لي تحقيقها على مستوى الواقع تظاهرت بالغيرة.. أذكر لك كلّ هذا لأنني أدرك أنّك تفهمني. ثمّ أنت تعرف من دون شكّ ولع النساء بالرجل الغيور.. المهمّ أنني أصرّيت على لقاء

مدرّس اللّغة الإنجليزية القادم من هناك.. التفت حوله بريبة ونظر مليّا إلى الجالس قربنا و عاد يهمس لي :

-في البداية رفضت بثينة وتذرّعت بكلّ الحجج الممكنة. فزادني ذلك إصرارا.. وباختصار مارست عليها كلّ الضغوط التي يمكن أن يمارسها رجل مثلي. إلى أن رضخت و طلبت بعض الوقت لتتشاور مع آمال في المسألة وتحاول إقناعها. سكت برهة. نظر في فنجانه ثمّ عاد يقول كالآسف :

- أحسست بالانتصار حين صعدت مع بثينة سيارة آمال التي ستقلنا إلى شقّتها في ضاحية قرطاج حيث سألتقي الرجل.. إلا أن القلق داهمني حين لمحت ابتساماتهما المريبة و نظراتهما المتواطئة، وكدت لولا الخجل العدول عن مشروع تقديم خدماتي للرجل و أن أطلب إلى آمال إعادتنا إلى حيّنا .

سألته و أنا أحاول أن أبدو مهتمّا :

- المهمّ هل قابلته ؟

فطوّح برأسه كما تفعل عادة الأرامل و خبط على ركبتيه و هو يقول بحماس أنساه أن يخفض صوته :

- في حياتي لم أصادف رجلا في مثل و سامته وجاذبيته.. رجل بالفعل.. كالذين نراهم في أفلام الوسترن.. بل أفضل منهم .طويل القامة، عريض المنكبين، كثيف الشعر فاحمه، بشرته برنزية، عيناه زرقاوان.. كلّ ما فيه يصرخ بالرجولـــــــة والقوّة.. لو تراه.. حتى أنني احتقرت و سامتي التي طالما تفاخرت بها.. هؤلاء البشر تفوقوا علينا في كلّ شيء حتى في الرجولة. و أنت تدرك ذلك و لا شكّ ..

في الواقع لم أكن أعرف ذلك و لا سواه. لم أعد واثقا من شيء. إلاّ أنني سألته مجاملة و بهدوء مفتعل لأن الحكاية طالت أكثر من اللاّزم و لأنني ضقت ذرعا بكلّ شيء. بخيبة أملي الجديدة.. بالمقهـــــــى ..بالساعة الثابتة و بصاحبي الذي لا أعرفه.. أو لا أكاد

-فكيف إذن لم تقع في غرامه إحدى الفتاتين أو كلتيهما؟

- و أنا أيضا طرحت على نفسي السؤال ذاته.. صمت قليلا مطّ شفتيه و هزّ رأسه و واصل.. لكن كلّ شيء توضّح لي في ما بعد ..بعد التحيّة والتعارف.. كنّا قد جلسنا متقابلين وقد بقينا لوحدنا في غرفة الجلوس بعد أن غادرتنا الفتاتان لسبب لم اعد أذكره ..

نظر إليّ و كأنّه يبحث عن الكلمة المناسبة أو كأنّه يستدرّ عطفي وتفهّمي ثمّ واصل .

- أحسست وقتها أنني في مأزق.. أنت تعرف أنني لم أنه دراستي و أن مستوى إنجليزيتي ضحل للغاية.. وبعد تبادل الابتسامات المرتبكة و لأخفي توتـــــــري و شعوري بالإحراج اتجهت إلى الشرفة وتلهيت بالنظر إلى الحديقة من خلال الزجاج في انتظار عودة الفتاتين ..

تلفت حوله باهتمام. سكب لنفسه كوب ماء جرعه دفعة واحدة ثمّ مال صوبي أكثر و خفض صوته، لأن الجالس إلى الطاولة المجاورة بدا و كأنّه يسترق السّمع، و قال بعد أن ابتلع ريقه بصعوبة :

-لم أسمع خطواته و هي تقترب ..لم أشعر بوجوده تماما إلاّ حين أصبح خلفي لا تفصلنا سوى مسافة قدم أو أكثر بقليل ..فالتفت إليه راسما على فمي ابتسامة مرتبكة سرعان ما إمّحت.. كان، جوني، وهذا هو اسمه، ينظر إليّ بغرابة و هو يتقدّم نحوي بالخطوة الأخيرة.. حتى أصبحت محاصرا بين جسمه القويّ و زجاج النافذة البارد.. لم استطع التقهقر أكثر. و لم استطع الخلاص .. ربما لأنّ المفاجأة ألجمتني وشلّ عدم إدراك الموقف حركتي.. و انتابني الفزع وهو يلتصق بي أكثر فأكثر.. ثمّ وهو يضغط عليّ بكلّ ثقله.. تضاعف خوفي و ثار الرجل الذي في داخلي.. لكن بعد فوات الأوان. حاولت دفعه إلاّ أنّه كان الأقوى. حاولت التملص أو الانفلات إلاّ أنّه استطاع بسهولة أن يشلّ حركتي وأن يجهض دفاعي.. ربما بسبب المفاجأة. و ربما بسبب ضعفي أو استعداداتي النفسية و الطبيعيّة.. تركته يقبلني.. لا أدري تماما ما حصل في تلك اللّحظات. أو ربما لا أريد أن أتذكّر.. و لم أفق من صدمتي إلاّ على ضـــــوء عدسة التصوير و هي مصوّبة نحوي.. لحظات سريعة عشتها كأنّها الأعوام.. و لم أكن قد استفقت تماما من المفاجأة الأولى حتى جمّدني مشهد بثينة .خطيبتي، مشروع حياتي.. وهي تمسك آلة التصوير لتسجل وقائع فقداني لشرفي.. وسقوطي ..

و أنا أيضا لم أكن قد أفقت تماما من ذهولي و لست أدري كيف استطاعت حنجرتي أن تفرز صوتا إنسانيّا غبيّا يسأل بلهفة .

- و هل فقدته ؟ أعني شرفك ..

فأجابني بهدوء وهو يشغل سيجارة مستوردة :

- ليس تماما.. إنّها مسألة نسبيّة، تختلف فيها وجهات النظر.. ثمّ إنّ مجلاّت الجنس الأمريكية لا تصل إلى بلادنا بسهولة بسبب الرقابة وكذلك الشأن بالنسبة للانترنيت إذ ليس بامكان الجميع الدخول في المواقع الخليعة.. ثمّ إنّهم يدفعون جيّدا وبالدولار وذلك ينعش الاقتصاد.. نعم يا صاحبي، إنّها العولمة ..

سألته بفضول وقد جف ريقي

-وخطيبتك ؟

تزوجنا طبعا.. و أنت تدرك أكثر من أيّ شخص آخر أن تبادل قلّة الشرف أفضل بكثير من تبادل قلّة ذات اليد.. ثمّ أنت تعرف أكثر من غيرك أزمة البطالة والفقر وبالخصوص مسألة النسبية. ثمّ إنّ الأحوال قد تغيرت. وفتحنا محلاّ للتصوير الفوتوغرافي.. صمت قليلا ثمّ ابتسم ابتسامة كريهة وأضاف

- لذلك قصدتك اليوم.. نحتاج إلى أناس متكتمين. وأنت صديقي و أنا أعرف تماما بأن ظروفك سيئة، أعتقد بأنه ليس لديك خيار آخر.. فإمّا أن تعيش وإمّا أن يدركك الجنون كغيرك.. فلماذا تضيع شبابك ونضارتك في حين ان الدولارات تنتظر إشارة منك لتتدفق عليك وببعض الروتوش والماكياج ستبدو رائعا ..

لم أكن قد استفقت تماما من ذهولي حين سمعت وقع سقوط الجالس إلى الطاولة المجاورة.. كان قد مال كثيرا في اتجاهنا ليسمع الحكاية.. و لم يكن ناجي قد أنهى كلامه بعد ..

اعتراف

حين نظرت إليها كان وجهها قد اتخذ هيئة حقيبة من الجلد المتفسخ. كان باهتا وشاحبا. واصلت النقر على بلّور الطاولة اللاّمع دلالة نفاذ الصبر. منذ أكثر من عشرين دقيقة و أنا أفتعل الغضب في محاولة لإرغامها على الاعتراف. كان لابدّ لي من الوصول إلى الحقيقة, كان لابدّ من ذلك.

غرفة مكتبي تقع في الجزء الجنوبي من الفيللاّ التي أسكنها و من خلال زجاج النافذة المرفوع الستار يمكنني رؤية شجرة اللوز التي بدأت تزهر. وكانت تغطّي بكتفها الهزيل الأيسر جزءا كبيرا من المشهد لذلك بدأ صبري يوشك على النفاذ لم أجئ بها إلى مكتبي إلاّ لكي أتفادى وساطة زوجتي التي لا تقدر على الاستغناء عن خدماتها, ولكي اشعر خادمتي أنني متكتّم و أنوي إنهاء المشكلة بأقلّ الأضرار المعنوية فيسارع ذلك في اعترافها.

الساعة الآن السابعة مساء. تفصلني عن موعدي المسائي ثلاث ساعات فقط لو أبدت تعاونا. لو نطقت. لو تفاعلت لخفّ الوطء على أعصابي لتسليت بمسرحيتها انتظار المقيت لما ستقول هذه العجوز.

كانت شبيهة بمكنسة السقف. طويلة في غير تناسق رأسها صرّة من الأشكال المتنافرة, شعرها رمادي و شائك. وفوق ذلك كلّه رائحة فمها لا تطاق. لذلك أبقيتها بعيدة عنّي.

ضايقني صمتها أحسست أمام صمتها و كأنني أنا المطالب بالاعتراف, نحن وحدنا في غرفة المكتب بل وفي فيلتي بأسرها زوجتي عند المزيّن, و البستاني غادر عند السادسة, إذن كـــــــلّ الظــروف ملائمة للاعتراف وطلب الغفران دون فضائح فما الذي يمنعها عن ذلك.

بالأمس افتقدت مبلغا ماليا محترما, وأغلب الظنّ أنّها أخذت هذا المال قبل يومين أو أكثر, أمّا لماذا هذا اليقين من أنّها هي السارقة فذلك لأنّها رأتني و أنا أضع مرابيح آخر صفقة في درج المكتب, كانت تقدم لي فنجان الشاي الذي طلبته حين إلتمعت عيناها لدى رؤية الأوراق النقدية لاحظت ذلك وعليّ أن أقول إنني سررت بذلك, تنتابني من حين لآخر موجات من الكآبة و القلق تعتصر أحاسيسي و تشعرني بأنني كائن معطوب, وفي نفس اللحظة التي إلتمعت فيها عيناها شعّ في ذهني بريق فكرة, و حين غادرت غرفة المكتب و أوصدت الباب بالمفتاح بدأ قلبي ينبض بلهفة و انتابتني غبطة ماكرة, كان المفتاح الطعم مغريا جدّا وهو ملقى بإهمال مقصود على بلّور الطاولة البنّي اللاّمع وكانت عزيزة وهو اسم خادمتي العجوز هي الوحيدة التي أعطيتها نسخة من مفتاح الغرفة.

كنت أبحث عن طريقة تخرجني من كآبتي أو تخرج الكآبة منّي ولم يكن مطلوبا منها سوى أن تسرق لأتمكّن في ما بعد مـــــن استخراج الحقيقة من فمها المذموم و محاكمتها, كان السيناريو محكما إلاّ أنّ مقاومتها الصامتة بدأت تخرجني عن صوابي منذ أكثر من عشرين دقيقة و أنا أتظاهر بالغضب دون جدوى. ماذا تريد أكثر, هل أضربها لتعرف أشدّها من شعرها, أصفعها, أوقعها أرضا, أوسعها ركلا و شتما..

لا بدّ أنّها تبحث إلى الآن في رأسها الناتئ كالدّمل عن كذبة تنقذ بها الموقف, تبحث في الوجوه عن الذي وشى بها. تحاول تذكّر الأحداث, إعادة ترتيبها تتذكّر كلاما قالته لحد أسرّت به فحسب عليها, عيناها جامدتين تنظران إلى نقطة ما في صدر سترتي, إنّها أكثر دهاء مما تصوّرت, كان ينبغي عليها ووفقا للسيناريو الذي وضعته أن تنهار منذ الدقائق الخمس الأولى كان عليها أن تعترف.

أكيد أنّها تبحث الآن عن الجملة المناسبة التي ستبدأ بها مسرحيتها, أتشوّق لمعرفة ما ستقول. يتزايد التشويق مع كلّ لحظة صمت تمرّ ويتزايد معه الملل, الزمن يتلكّأ في هذه الغرفة, موعدي المنتظر مازال بعيدا لماذا تصرّ إلى الآن على الصّمت و الجمود, مثانتي ممتلئة لم يكن الوقت ملائما لفضّ الجلسة و التوجه إلى غرفة الحمّام. لو بكت كم قطرة دمع ستسكب فوق أخاديد وجهها الذي أصابه العطب, ماهي النبرة التي ستختارها الهيئة التي سيتخذها جسمها الطويل الناحل, ماذا ستقول قبل أن تعترف بجرمها, فليقبض عزرائيل رومي يوم سبت يا سيدي, فليأكل الدود جسمي و روحي يا سيدي. فلتجتاح الأوبئة مسام بدني, فليشل نصفي إن كنت أنا الفاعلة.. أفكّر في مقدار حركات الرموش, الشهقات, حركات اليدين, التواء القامة, أفكّر بكلّ ذلك و أنا أنظر إلى ذلك الكائن المتخشب أمامي و كأنه يردّ لي الاتهام صمتا و كأنه كان يتحدّاني.

على المرء أحيانا أن يحسن اختيار وقت التراجع, وقت إضاعة الوقت, توقيت إيقاف اللعبة للتفكير في حلول مناسبة وفقا للمعطيات الجديدة, و كنت أعاني مجددا من القلق الممزوج بالقتامة و الضجر, توجهت إلى النافذة فتحتها سرت نسمة باردة حملت معها رائحة زهر البرتقال, كنت قد سئمت الفكرة التي لازمتني منذ خمسة أو أربعة أيام و مفادها أن أعاقب خادمتي بسبب السرقة. طيلة اليومين الأوّلين خشيت أن يكون لخادمتي ضمير حي فتركت لها المجال مفتوحا ولم أدخل غرفة مكتبي إلاّ مساء الأمس. أسعدني كثيرا أنها مدت يدها القذرة إلى مالي و سرقتني, جعلني ذلك الأمر أحسّ بالغبطة و أكثر من الابتسام لزوجتي خلال العشاء, الآن وهي صامتة ومنكسة الرأس بدأت تثير حقدي و غيظي لا عليها هي فحسب بل على نفسي أيضا.

تأملتها من خلف, لا شيء و لا ردّة فعل واحدة و لا رجفة في الجسم الأعجف. لا شيء يدلّ على أنها تكترث لي. أقترب منها أكثر تفصلني مسافة قدم عن ظهرها. أنحني برأسي على أذنها. تسمع لهاثي, أكيد أنّها سمعته. دقات قلبي تتقافز في أذني و كأنني أنا المذنب لا هي. أنا السارق لا هي,

أنا المجرم لا هي. أصرخ فيها أنت التي سرقت المال.. أكاد ألهث ينتصب رأسها فجأة, تلبث صامتة, أسرّ قليلا. أعود فأصرخ لست سوى لصّة, حثالة مجتمع, عورة الإنسانية, كلّ ماهو قبيح.. أنت بؤرة الفساد.. وأنا الذي أمنك على بيتي و مالي. تتغيّر نبرة صوتي وفقا لتغيّر المشهد. أبتعد خطوات. يتصبب عرق غزير من جبهتي, لا بدّ أنني كنت محموما, أصبح جوّ الغرفة حارّا و خانقا. أعود إلى أريكتي. أنظر إليها و أنا اسحب سيجارا من جيب سترتي. تواجهني نظراتها, صوّبت نظراتها نحو عيني تماما. و كأنها تتحدّاني, تحتقرني أو تهددني.

عندما يتكثف الغضب يصبح أشبه بالهدوء, أضع السيجار في فمي أتلهّى بمضغ عقبه. تخرج الكلمات حادّة و باردة تعلمين أنّه في استطاعتي الزجّ بك في السجن. يمكنني أن آمرهم فيشنقونك أو يأخذونك إلى المقصلة.. تعلمين أنني شخص مهمّ و أصدقائي مهمّون جدّا.. نظراتها ثقيلة تخترق رأسي. أو شك على الاستسلام أوشكت على الاستسلام أمام صمتها و الاعتراف. أعترف الآن أنني كنت على وشك الاعتراف.

أعرف أنّك أخذت المال كان يمكن ألاّ تأخذينه, أن تنهي اللّعبة قبل أن تبدأ. لكنّك عنيدة. غيّرت نبرة صوتي. أشرت إليها أن تجلس قبالتي. بقيت يدي معلقة في وضع أفقي, رمقتني بنظرة تجلّى لي فيها الكثير من الاستخفاف و الاستهانة. طعنة أخرى في الكبرياء. أعلم أنّك أخذت المال و يعجبني أنّك لم تنكري ذلك.. كلّ ما أودّ معرفته هو ماذا صنعت بمالي.. خرج صوتي مخنوقا بين شفتي. لم أعد أفهم شيئا.

و أذهلني أنها خرجت من تخشبها و تحركت في مكانها كمن يستفيق من نوم. حركت يديها لم أنتبه قبلا أنها كانت تضع يديها في جيوب ثوبها. ثمّ شهرته أمامي.

اشتريت هذا.. كان مسدسا جديدا يلمع في عتمة الغرفة. ورغم ارتباكي لاحظت لأوّل مرّة أنّها ابتسمت, اشتريت لك هذا.. قالت بصوتها الحاد.. لأقتلك.. و أطلقت الرصاصة نحو صدري. كنت غارقا فوق مكتبي في الدهشة و الألم و الدم.. و قبل أن تخرج التفتت إليّ و قالت لا يستحق أن يعيش و بصقت في اتجاهي. كنت أكابد الألم الحارق. وأحسست أنني سأنهي اللعبة وحدي.

الكلب

وضع سماعة الهاتف غير مصدق. ولو كان وحده في مكتبه الضيق لأطلق زغرودة مدوية... طلب من رئيسه المباشر رخصة استثنائية ثم خرج مسرعا... آلاف الصور والمشاهد تعاقبت على ذاكرته... وأطلت آلام قديمة برأسها الأبيض من خلف الأحزان... إحساسه يتمايل بين الفرحة وعدم التصديق وتوقع خيبة الأمل...

في البيت وجد الجميع في انتظاره وقد غطت وجوههم المغضنة بعض الدموع... خمن أنها دموع الفرح... حين فتح الباب التفت إليه الجميع وتوقفوا عن الكلام.. أصغرهم سنا تجاوز الأربعين... وجوههم كالحة وثيابهم معفرة... التفتوا إليه جميعهم وانطلقت من فم أخته الكبرى قهقهة غطت على دموعها المنهمرة بغزارة... تعانقوا وتسلحت وجوههم بتعابير تليق بالمناسبة وانطلقوا إلى حيث هو..

أطل الجيران من شبابيكهم... والتصق الأطفال بعربة رجال الشرطة... وأطلقت عجوز تجاوزت الثمانين بعض الشتائم وهي تضع منديلا عريضا على أنفها...

تظاهر بالتماسك كي لا تنطلق ضحكته المدوية... وتدافع مع إخوته نحو الباب... دلفوا وجلين إلى البيت الذي لم يطئوه منذ أكثر من عشرين عاما... أدمت قلوبهم الرائحة المنبعثة من الغرفة... توقع الجميع شيئا يشبه ما حصل... همست أخته الوسطى هل كان الأمر صحيحا... فنهرها أخوها مشيرا أن عليهم التزام الحذر... ألهبت الرائحة ذكرياته الدامية فغطى جرحه بابتسامة واهنة وهمس لإخوته وماذا لو كان الأمر إشاعة... مجرد إشاعة.. وفجرت كلماته موجة من التساؤلات كانت ستتطور إلى نقاش بصوت مرتفع... غير أن أخاهم الأصغر أشار هامسا بضرورة ترك الباب مفتوحا... كي يضمنوا العودة...

تدافعوا في مشيهم على أطراف أصابعهم وكأنهم يخشون إيقاظ شيء ما.. ومع كل خطوة يزداد ضغطهم على المناديل التي غطوا بها أنوفهم... حلم يوشك على التحقق... متأخرا بربع قرن أو أكثر.. غير أنه يكاد يتحقق.. عليهم التريث والتثبت قبل إصدار أية ردة فعل.. لا تحتمل نفوسهم المهشمة مزيدا من الخيبة... فكر أن الأمر قد يكون كذبة لا غير.. إلا أن حضور رجال الشرطة.. وشتائم الجارة العجوز.. وكل هذه الرائحة تكاد تؤكد له ما يعجز عن النطق به..

تزاحموا أمام باب غرفته... كان الباب مواربا.. تدافعوا.. كل يدفع أخاه للدخول قبله.. طال ترددهم حتى قطعه مواء القط.. ولم يعرف اليد التي دفعته داخل الغرفة حتى كاد يجثو أمام السرير... دخل

القط وراءه ومن بعدهما بقية إخوته... الرائحة تدمي القلب والأنف والعين والحنجرة... القط يتمسح بالسرير وينظر إليهم شزرا... يلعق قوائمه وينظر إليهم بشراسة...

نافذة الغرفة محكمة الإيصاد.. مغلفة بقطعة كبيرة من البلاستيك خوف تسرب الهواء البارد وإصابته بالزكام... الإناء الذي يتبول فيه قرب السرير.. وعلى الطاولة عشرات علب الأدوية وبعض أقراص الفياغرا وقوارير مياه معدنية مستهلكة.. جواربه المتسخة وبعض العوازل المستعملة ترقد على الجرائد الصفراء الملقاة أرضا قرب الخزانة...

ارتسم الوجوم على وجوههم المغضنة المنهكة... ودار في ذهن كل واحد منهم سؤال صفيق... وماذا لو كان في الأمر خدعة... دفعه أحد إخوته مجددا كي يتقدم... اقترب خطوة وكاد يتعثر بالقط الذي أنشب فيه مخالبه.. تقدم خطوة أخرى.. التفت إليهم فشجعوه بنظراتهم الخائفة الملحاحة على أن يقترب أكثر... فكر أن مسافة الأمان بدأت تنسحب من تحت أقدامه التي ترفض الاقتراب أكثر.. وأن الباب ما يزال مفتوحا وبوسعه الهرب وبأنه لم يتخلص بعد من خوفه وأنه بحاجة لوجود أمه معه....

تذكر الجيران الذين يطلون بأعناقهم.. والجارة المتحمسة لإطلاق كل شتائمها.. ورجال الأمن المنتظرين أمام الباب.. والأطفال المحتمين بظل سيارة الشرطة... كل تلك العيون تدعوه كي يتقدم.. كي يستجلي الحقيقة دون الاعتماد فقط على الرائحة...

مد يدا مرتعشة.. حاول وجلا أن يهز قدميه قليلا.. لم يلمسه مطلقا من قبل.. لا يذكر مطلقا أن عناقا جمعهما.. أو لمسة يد.. أو نظرة حانية... وعاوده وجعه الأخرس.. وجعه المزمن... كتم ألمه جاهدا.. لو كانت أمه هنا لارتمى في أحضانها مفرغا دموع عمر كامل...

البرودة تنبعث من اللحاف تنشب أنيابها الحادة في أصابعه المرتعشة... لا يصدق... لا يمكنه التصديق... يستحثه صوت أخته الخافت أن يتقدم.. أن يقترب أكثر.. الجميع ينتظرون مثله هذه اللحظة منذ الأبد... ولا يفصله عن تحقيقها سوى تحريك يد والضغط على هذا الجسم الممد أمامه... هذا الجسم الذي تخرج منه رائحة عمر بأسره... عليه أن يتأكد...

هزه بخوف في البداية... ثم ضغط أكثر على الأقدام المتخشبة... صرخ بابا.. لأول مرة في حياته دون أن تخدش الكلمة شفتيه.. أو ينزف دم المعنى في داخله... وحين لم يتلق إجابة التفت إلى إخوته مهنئا والدمع يطفر من عينيه...

كان ذلك بمثابة المستحيل... لم يتصوروا يوما أنه سيموت... توقعوا له الخلود المطلق.. وكانوا على قناعة تشبه الإيمان من أنهم سيموتون قبله واحدا تلو الآخر... ومن أنه لن يبكي أحدا فيهم...

بل سيضحك ضحكته المدوية العالية ويحتضن قطه وينام مرتاحا بعد أن تخلص من إحدى خطاياه... لأنهم خطيئته الكبرى.. ولأنه أكبر خطاياهم...

همست أخته إن ذلك مستحيل.. غير معقول.. ربما كان مزحة... أو تمثيلية يستدر فيها بعض العطف بعد كل هذا العمر... اقتربوا جميعهم بخطوات وجلة من الممدد على السرير الذي ينظر إلى شيء ما في السقف... امتدت أيديهم وهزته بوجل في البداية ثم بعنف... ولما لم تبدر منه أية ردة فعل علت بسمة خجولة الشفاه...

تماسكت أخته حتى لا تزغرد... وحضنوا بعضهم بعضا... فقد استطاع دائما جعلهم كتلة واحدة... في مواجهته...

قال الأصغر وأخيرا.. فعانقته أخته وقالت أجل.. وأخيرا أصبحنا يتامى.. ابتسموا لبعضهم البعض... وكان لكلمة يتيم وقع ساحر في نفوسهم... وكادت تتعالى القهقهات لولا أن عاجلهم أخاهم الأوسط بوضع إصبعه على شفتيه وأردف أن عليهم ترك التهاني لوقت آخر.. وأن عليهم الخروج ليزفوا النبأ البشرى بما يناسبه من حزن ووجوم....

اختلط كلامهم بمواء القط.. وعلى إيقاع صوته تراقصت قلوبهم الفرحة... خرجوا من البيت مسرعين غير مبالين بالرائحة التي التصقت بأعماقهم... وعند الباب تلقفتهم الجارة مطلقة صيحة تليق بالمناسبة... وتسابق رجال الشرطة باستخفاف فشلوا في إخفائه لفتح المجال لسيارة البلدية التي ستأخذه إلى الطبيب الشرعي لتحديد سبب الوفاة ومن ثمة دفنه في العشية...

جاهدوا للاحتفاظ على وجوههم بتعابير حزينة... في حين تربع القط على حاشية السرير المحشوة أوراقا نقدية... يعرفون منذ البداية أنه لن يترك لهم شيئا وأن كل ما يملكه سيعود إلى جمعية أحباء القطط.. أو إلى أبناء آخرين أنجبهم في غفلة منه ومن الزمن... ولم تكن تلك المسألة بالتحديد تعني لهم شيئا...

عادوا معه إلى بيته ذي النافذة الوحيدة. شربوا الشاي... تذكروا أشياء حزينة... تنهدوا... ذرفوا بعض الدموع الحقيقية لمشاهد من الماضي... ثم اتفقوا على الالتقاء في المقبرة... ابتسموا لدى ذكرهم للموعد... تذكروا وعدا قطعوه على أنفسهم منذ طفولتهم... منذ أن ماتت أمهم وأطردهم واحدا تلو الآخر...

تلك الليلة لم يستطيعوا النوم... لم يغمض لأحدهم جفن... ولم يدخل أحد منهم إلى الحمام... ومع انطفاء آخر نجوم الفجر كانوا في المقبرة... اتفقوا ألا ينظر أحدهم للآخر وهو يفي بنذره... وتقدموا من القبر الطري... غير أن حماسهم تبدد... فقد سبقهم كلب أجرب وخرأ على القبر... قبلهم...

السيرة الذاتية للكاتبة روضة السالمي

روضة السالمي
صحفية وقاصة من تونس
ولدت في تونس 14 فيفري 1974

تنشر في الصحف والمجلات التونسية: الصحافة، الملاحظ، الأيام
وفي صحف عربية: الفينيق (الأردن)

وبعض المواقع الالكترونية: موقع القصة العربية، موقع القصة العراقية.

معلومات الإتصال: raoudha.selmi@cst.rnu.tn